الفصل الثالث

هيئة تلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن من جبريل عليه السلام

وفيه تسعة مباحث

إننا ندلف إلى هالات موكب تعليمي تتضآل الكلمات عن وصفه...يرسم لعوالم الاغتراب: أيُ شيءٍ كان قادة هذه الأمة، وأيُ نورٍ كانت هذه الأمة من بعد...

أنا قصة من بدر أرسلها الهدى.....محمد يرويها، وجبريل يكتب

وكعبتي الغراء بيتي وقبلتي.....وبستاني المعمور بالحب يثرب

وهذا الفصل يشكل لُبَّ البحث ومداره، كما هو واضح من عنوانه، وما سبق من الفصول كان تقدمةً له من حيث إثبات العوامل الإيجابية التي تخدمه، وتلاه فصلان: الرابع مكملٌ له، خادمٌ لغرضه، والخامس خاتم له من حيث نفي العوامل السلبية...ولذا قُسِمَ هذا الفصل إلى تسعة مباحث يحاول الباحث من خلالها إعطاء **صورة نموذجية واقعية لتلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن الكريم بأمر الله ﷻ من جبريل عليه السلام منذ أن يأمر الله -تعالى ذكره- جبريل عليه السلام بتعليم الوحي القرآني للنبي ﷺ، وحتى تمام ذلك التعليم، وبلوغه الكمال بالمتابعة، والمراجعة والتعاهد**...ولذا فمباحث هذا الفصل هي:

المبحث الأول: كيفية مجيء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ عند تعليمه الوحي القرآني.

المبحث الثاني: هيئة إلقاء الوحي القرآني من جبريل عليه السلام على قلب النبي ﷺ.

المبحث الثالث: نزول جبريل عليه السلام توقيفي .

المبحث الرابع: مظاهر اجتهاد النبي ﷺ في تلقي القرآن الكريم قبل نزول التوقيف الإلهي .

المبحث الخامس: سمات الرسول ﷺ حين نزول الوحي القرآني عليه .

المبحث السادس: حديث المعالجة .

المبحث السابع: التلقي والتلقين .

المبحث الثامن: كيفية قراءة الرسول ﷺ على جبريل عليه السلام من حيث الأمر الشرعي، والواقع التطبيقي.

المبحث التاسع: حديث المدارسة .

المبحث الأول:

كيفية مجيء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ عند تلقينه الوحي القرآني(١):

يدرس هذا المبحث هيئة مجيء جبريل عليه السلام ليلقي الوحي القرآني من أول أمر الله سبحانه وتعالى له بالنزول حتى إلقائه القرآن على قلب النبي ﷺ، **فقد وصف القرآن الكريم هيئة مجيء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ عند إبلاغه الوحي القرآني وصفاً دقيقاً**، وكان جل ذلك الوصف في سورة النجم(٢)، التي صُدِّرت آياتها بإعلاء شأن النبي ﷺ بياناً للإرادة الإلهية في اختياره للنبوة، وإبلاغ كلام الله للناس، والهجوم على قادح في ذلك يلقيه شياطين الإنس والجن ... فلما قال عز وجل ﴿**إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى**﴾ "النجم/٤"، **استؤنف الكلام استئنافاً بيانياً، كأنه قيل: فكيف يأتيه هذا الوحي؟، ومن يأتيه به؟، وكيف يلقيه إليه فيعيه، ولا يفارقنا؟، وكيف يأتيه الوحي القرآني وهو كلام الله عز وجل، فيطيقه وهو بشر؟**، فقال الله سبحانه وتعالى ﴿**عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى...**﴾ "النجم/٥"، فسورة النجم: "مقصودها ذم الهوى، لإنتاجه الضلال والعمى...والحث على اتباع النبي ﷺ في نذارته التي بينتها سورة (ق)، وصدقتها سورة الذاريات، وأوقعتها وعينتها الطور"(٣).

---

(١) المراد المجيء الخاص لأجل الوحي القرآني، فليُلحظ هذا الاختلاف بين ما ذكر هنا وما ذكر في المبحث الثالث من الفصل الثاني .

(٢) ولا ينكر منكر على البحث إظهارَ كيفية تعليم الوحي للنبي ﷺ من جبريل عليه السلام من خلال هذه الآيات فقد ذكر ذلك عدد من أرباب التفسير، قال أبو السعود في تفسيره (٥/٤٣)، مرجع سابق: "في قوله تعالى ﴿**فَاسْتَوَى**﴾ عطف على ﴿**عَلَّمَهُ**﴾بطريق التفسير، فإنه إلى قوله تعالى ﴿**مَا أَوْحَى**﴾بيان لكيفية التعليم"، **فإن اعترض** بأن هذا وصف للوحي في حالين فقط كان فيهما جبريل عليه السلام بخلقته الأصلية، وليس وصفاً للوحي بصورته الدائمة، **فالجواب**: فليكن كذلك، وكما وصف اتصال جبريل عليه السلام بذلك في حالين، هو دأبه في اتصاله به دائماً، ما خلا صورته الأصلية؛ إذ قام الدليل على حصرها، ولا دليل على حصر بقية الأوصاف في هذه السورة في الحالين، على أن الوحي القرآني النازل على القلب، يأخذ صورة غير الصورة التي يأتيه فيها الملك بصورة رجل، كما هو ظاهر من وصف نزوله بالقرآن بأنه (على القلب) .

(٣) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ١٩/٤٠، مرجع سابق .

ومن ثم فلا إنكار على سائل على كيفية اتصال الملك بالنبي ﷺ، للتفاوت في الخِلْقَة بين عالم الملائكة الذين هيأهم الله ﷻ بقوى بها يكونوا عنده، وبين البشر الذين الذين يضعفون عن مشاهدة عالم الملائكة أو الجن فضلاً عن تحملهم للوحي الإلهي، فاحتاجوا إلى الواسطة لنقل هذا الوحي"ولما كان الوحي ظاهراً في كونه بواسطة المَلَك، تشوف السامع إلى بيان ذلك؛لأن ذلك أضخم في حقه ﷺ وأعلى لمقداره"([1]).

فلنتتبع هذا الوصف القرآني([2]) لتلقي جبريل عليه السلام الوحي القرآني من الله ﷻ([3])، وكيفية نزوله إلى النبي ﷺ :

١- **يسمع من الله ﷻ جبريل عليه السلام الوحي الذي ينزل به:** كما في حديث النواس بن سمعان السابق([4])، وفيه(فينتهي جبريل إلى حيث أمر من سماء أو أرض) . وجبريل عليه السلام هو الذي يُلقي على النبي ﷺ الوحي القرآني، وهو أمين الوحي في السماء والأرض، ورسول الله ﷻ إلى رسله من البشر .

٢- وهو معلم النبي ﷺ ذي الصفات البالغة في قدرة حاملها على أداء هذه الرسالة على أتم وجه وأحسنه، فليس مُعَلِّم النبي ﷺ مخلوقاً عادياً بل لقد علم النبي ﷺ **﴿شَدِيدُ الْقُوَى(٥)ذُو مِرَّةٍ ﴾** "النجم/٥-٦" وقد تقدمت صفاته([5]).

([1]) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ١٩/٤٠، مرجع سابق .

([2]) ففيه كما قال في التحرير والتنوير (٢٧/٩٥): "تمثيل لأحوال عجيبة بأقرب ما يفهمه الناس؛ لقصد بيان إمكان تلقي الوحي عن الله تعالى؛ إذ كان المشركون يحيلونه، فبين لهم إمكان الوحي بوصف طريق الوحي إجمالاً وهذه كيفية من صور الوحي" .

([3]) وقد أعرض البحث عن الأقوال الواردة في كيفية تلقي الملك للوحي، لأنها محض تخمين في أمر غيبي، لا يظهر فيه للتحقيق العلمي أثر إلا بالتسليم لظاهر النصوص الدالة على السماع... .

([4]) انظر: الفصل الأول-المبحث الثالث .

([5]) انظر: الفصل الأول- المبحث الثاني .

٣- لكن أبرز صفاته التي يشار إليها في هذا المقام -إذ أظهر الغَفَلَةُ تعجبهم من اتصال الملأ الأعلى بالبشر، وسرعة وصول الرسول السماوي إلى الرسول البشري مع وجود هذه المسافات الهائلة بينهما-**أنه﴿...شَدِيدُ الْقُوَى(٥) ذُو مِرَّةٍ...﴾**، وقد تقدم شرحها([1]).

٤- عندما يريد الله ﷻ من جبريلعليه السلام الوصول إلى النبي ﷺ لتبليغه الوحي-إرادة أمر وإذن([2]) -فإنه يستعد للقيام بأمر الله، وهو بالأفق الأعلى، **فاستعداده هنا فعليّ بعد أن كان استعداداً فطرياً**؛ ذلك بأن الأفق هو اسم للجو الذي يبدو للناظر ملتقى بين طرف منتهى النظر من الأرض وبين منتهى ما يلوح كالقبة الزرقاء، وغلب إطلاقه على ناحية بعيدة عن موطن القوم ومنه أفق المشرق وأفق المغرب،ووصفه بالأعلى ليفيد أنه من ناحية السماء([3])، ويومئ لهذا قوله ﷺ : (إنما ذلك جبريل، ما رأيته في الصورة التي خلق عليها غير هاتين المرتين: رأيته منهبطاً من السماء ساداً عظم خلقه ما بين السماء والأرض) ([4]).

فإن اعترض بأن: هذا دال على رؤيته له، لا على استعداده للنزول...فلا يستقيم الاستدلال! **فالجواب:**نعم !يدل على رؤيته له، ولكن تبقى الآية محتملة للأمرين إن كان بقية الحديث منقطعاً عما قبله، كأنه قال: المراد في الآيات هو جبريلعليه السلام، ثم استأنف

([1]) انظر: الفصل الأول- المبحث الثاني .

([2]) تفصيل هذه الإرادة الإلهية: في المبحث الثالث من هذا الفصل .

([3]) وقيل هي رؤيته له بحراء قد سد الأفق . انظر: (أبو حيان)محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي الغرناطي ت٧٥٤ هـ: البحر المحيط ١٥٧/٨، ط٢ ١٤١١هـت -١٩٩٠م، دار إحياء التراث العربي-بيروت، وقوله ﴿دَنَا﴾ تبعد ذلك، وقيل فيها دنا: أي النبي ﷺ إلى جبريل عليه السلام. انظر: تفسير أبي السعود ٢١٨/٥، مرجع سابق، وواضح وهن هذا القول من حيث سياق الآيات، ومن حيث طبيعة قصة الإسراء .

([4]) سنن الترمذي ٥/ ٢٦٢، مرجع سابق .

فقال: ما رأيته ....، والأقرب هو ما استدل به عليه هاهنا من حيث أن سياق الآيات وسببها بصدد تقرير صدق الوحي، وإمكانية اتصال الملك بالرسول([1]).

واستعداده لأداء هذه الرسالة والنزول بها إلى العالم الأرضي كما قال تعالى ﴿**فَاسْتَوَى**﴾ في سورة النجم مفرع على ما تقدم من قوله﴿**عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى**﴾ "النجم /٥"، والفاء لتفصيل ﴿**عَلَّمه**﴾ والمستوي هو جبريل عليه السلام .

ومعنى استوائه: قيامه بعزيمة لتلقي رسالة الله تعالى، كما يقال: استقل قائماً، ومثل بين يدي فلان، فاستواء جبريل عليه السلام هو مبدأ التهيؤ لقبول الرسالة من عند الله، وكذلك قيد هذا بجملة الحال في قوله ﴿**وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى**﴾"النجم/ ٧ "، والضمير لجبريل عليه السلام لا محالة، أي قبل أن ينزل إلى العالم الأرضي([2]).

٥- بعد استعداده لتنفيذ الأمر **يبدأ بالنزول بسرعة يعلم مقدارها** من أودع فيه القوة الهائلة لتبليغ الوحي القرآني إلى الرسول ﷺ حيث كان، فلا يبالي بمكانه في بيت أوفي فراش أو بين أصحابه أوفي جهاده كما تقدم([3])،﴿**ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى**﴾"النجم/٨"، **والدنو:** هو القرب، والمراد إلى حيث يبلغ الوحي وذلك إلى مكانه المحدد من الأرض "وإذ كان فعل الدنو، قد عطف بـ ﴿**ثُمَّ**﴾ على﴿**اسْتَوَى**﴾ ﴿**بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى**﴾ علم أنه دنا إلى العالم الأرضي، أي أخذ في الدنو بعد أن تلقى ما يبلغه إلى الرسول ﷺ، و﴿**فَتَدَلَّى**﴾ انخفض من علو قليلاً، أي ينزل من طبقات إلى ما تحتها، كما يتدلى الشيء المعلق في الهواء بحيث لو رآه الرائي يحسبه متدلياً، وهو ينزل إلى السماء غير منقضٍ"([4]).

([1]) وسورة النجم أول أغراضها تحقيق: أن الرسول صادق فيما يبلغه عن الله تعالى، وأنه منزه عما ادعوه، وإثبات أن القرآن وحي من عند الله بواسطة جبريل عليه السلام، وتقريب صفة نزول جبريل عليه السلام بالوحي في حالين زيادة في تقرير أنه وحي من الله واقع لا محالة . انظر: التحرير والتنوير ٩٦/٢٧، مرجع سابق .

([2]) التحرير والتنوير ٩٦/٢٧، مرجع سابق .

([3]) في الفصل الثاني- المبحث الثاني .

([4]) انظر: التحرير والتنوير ٩٦/٢٦، مرجع سابق .

٦- **يزداد اقترابه من النبي ﷺ حتى يصبح على مسافة قوسين** منه أو أدنى **﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾** "النجم /٩" .

وفائدة قوله **﴿أَوْ أَدْنَى﴾** بيان دقة وصف المسافة بينهما؛ إذ **﴿أو﴾** فيه للتخيير في التقدير، وهو مستعمل في التقريب، أي إن أراد أحد تقريب هذه المسافة فهو مخير بين أن يجعلها قاب قوسين أو أدنى أي لا أزيد، **إشارة إلى أن التقدير لا مبالغة فيه** .

وفي قوله ﷻ : **﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾** "النجم/ ١١"، **تأكيدٌ على أن القُرْبَ قرب حسي لا مجرد اتصال روحاني**، على قول من تأوله بأنه رد لتكذيب المشركين فيما بلغهم من الخبر عن رؤية النبي ﷺ الملك جبريل عليه السلام([1])، **ويؤيده ما** رواه الإمام البخاري -رحمه الله تعالى- عن أبي إسحاق الشيباني قال: سألت زر بن حبيش عن قوله ﷻ **﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى(١٠)مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾** "النجم /١٠-١١"([2])، قال: حدثنا ابن مسعود رضي الله عنه أنه([3])رأى جبريل عليه السلام له ستمائة جناح([4])، وعن مسروق قال: قلت لعائشة: فأين قوله **﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾** ؟. قالت: ذاك جبريل كان يأتيه في صورة الرجل، وإنه أتاه هذه المرة في صورته التي هي صورته فسد الأفق([5]).

([1]) انظر: التحرير والتنوير ٢٦/٩٨، مرجع سابق .

([2]) قال ابن حجر -رحمه الله تعالى-: "كلام أكثر المفسرين من السلف يدل على أن الذي أوحى هو الله، أوحى إلى عبده محمد ...."، وقد ظهر أن الراجح في نظر الباحث أن الكلام عن جبريل عليه السلام لوجوه منها: سبب الآيات وسياقها وقد مضى في المبحث الأول من هذا الفصل، ومنها ما يشعر بذلك نحو قوله تعالى **﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾** "النجم /١٣"، ومنها: قدم سورة النجم في النزول فهي السورة الثالثة والعشرون، نزلت بعد سورة الإخلاص، وقبل سورة عبس (انظر: التحرير والتنوير ٢٦/٨٨، مرجع سابق)، وفي الأثر الذي رواه ابن الضريس في فضائل القرآن عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنها الحادية والعشرون بين هاتين السورتين، انظر: الإتقان في علوم القرآن١/١١، مرجع سابق، على أنه لا تعارض بين أن يكون الموحي هو الله تعالى، وأن يكون ما قبله في جبريل عليه السلام، بل كون ما قبله في جبريل عليه السلام هو قول أكثر المفسرين .

([3]) يعني النبي ﷺ كما معلوم .

([4]) صحيح البخاري ٣/ ١١٨١، مرجع سابق .

([5]) صحيح البخاري ٣/١١٨١، مرجع سابق، وروى أبو يعلى في مسنده ٨/ ٣٠٤، مرجع سابق: عنها قالت: " أنا أعلم هذه الأمة بهذه، وأنا سألت رسول الله ﷺ عن ذلك قال: (رأيت جبريل) ثم قالت: من زعم أن محمداً رأى ربه فقد

والاستدلال هاهنا فيه الكلام السابق الوارد عند ذكر هذا الحديث آنفاً(١).

وعلى هذا فإن النبي ﷺ كان يرى جبريل عليه السلام رؤيا حقيقية، لكنها رؤيا فؤاد كما أن العين ترى ضوءاً فترسل إشاراتها الضوئية إلى المخ فيتم وعيها في المخ...فهل كانت رؤية النبي ﷺ لجبريل عليه السلام تصل مباشرة إلى مركز الإبصار في المخ، كما أن استماعه لقراءته يصل إلى مركز السمع في المخ...والمخ متصل

أعظم الكذب على الله"، وعند مسلم ١/١٥٩، مرجع سابق عن مسروق قال: كنت متكئاً عند عائشة -رضي الله تعالى عنها-فقالت: يا أبا عائشة ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية، قلت: ما هن ؟. قالت: من زعم أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، قال: وكنت متكئاً، فجلست، فقلت: يا أم المؤمنين! انظريني، ولا تعجليني، ألم يقل الله عز وجل ﴿**ولقد رآه بالأفق المبين**﴾ "التكوير/٢٣" ﴿**وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى**﴾ "النجم/ ١٣"؟. فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: (إنما هو جبريل، لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين: رأيته منهبطاً من السماء سادا عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض) . ومن فوائد هذه الروايات: إسناد عائشة قولها للرسول ﷺ صراحة، وقوله منهبطاً دال على رؤية النبي لجبريل عليه السلام حال نزول جبريل عليه السلام عليه منهبطاً من السماء لتبليغه الوحي .

(١) * **فائدة:** قد تأول أكثر المفسرين آيات النجم والتكوير في جبريل عليه السلام، واختلافهم في رؤية النبي ﷺ لربه إنما هو بأمر خارجهما، وليس ذا المعترك الكلامي ميداناً للبحث، إنما أريد هاهنا بيان ضعف قول النووي في شرح مسلم ٢/٣٢١، مرجع سابق: "لم تنف عائشة -رضي الله تعالى عنها- وقوع الرؤية بحديث مرفوع، ولو كان معها لذكرته، وإنما اعتمدت الاستنباط على ما ذكرته من ظاهر الآية وقد خالفها غيرها من الصحابة، والصحابي إذا قال قولاً، وخالفه غيره منهم لم يكن ذلك القول حجة اتفاقاً، والمراد بالإدراك في الآية الإحاطة وذلك لا ينافي الرؤية" إذ قد ثبت الحديث المرفوع الوارد في تأويل الآيتين في مسلم، حتى تعجب ابن حجر -رحمه الله تعالى- من هذا الذهول فقال: "وجزمه بأن عائشة -رضي الله تعالى عنها- لم تنف الرؤية بحديث مرفوع تبع فيه ابن خزيمة، فإنه قال في كتاب التوحيد من صحيحه: النفي لا يوجب علماً، و لم تحك عائشة -رضي الله تعالى عنها- أن النبي ﷺ أخبرها أنه لم ير ربه، وإنما تأولت الآية انتهى، وهو عجيب! فقد ثبت ذلك عنها في صحيح مسلم الذي شرحه الشيخ فعنده من طريق داود بن أبي هند عن الشعبي عن مسروق في الطريق المذكورة، قال مسروق وكنت متكئاً ... - ثم ذكر طريقاً آخر، وفيه: فقلت: يا رسول الله! هل رأيت ربك فقال: لا إنما رأيت جبريل منهبطاً " فتح الباري ٨/ ٦١٠، مرجع سابق .

ورابط هذا الإيراد المعترض سبيل البحث بالبحث هو التأكيد على ما قُرِّر أعلاه من أن آيات النجم جاءت موضحة أنموذج الاتصال بين جبريل عليه السلام والنبي ﷺ .

بالمركز العقلي المتحكم المسمى بالفؤاد...؟ قد يكون الأمر كذلك؛ إذ لو كانت رؤيا جارحة لرآها كل من له الجارحة ذاتها ممن يكون موجوداً مع الرسول ﷺ في مكان تلقي الوحي، وقد يقال باختلاف جارحة النبي ﷺ عن جارحة غيره، ولذا تمت تهيئته ﷺ لتلقي الوحي القرآني كما سبق في الفصل الثاني، ويُقَرِّبُ هذا: أننا نعلم أن الحيوانات تشترك في جارحة السمع والبصر مع تفاوتها في دقتهما، ومدى تركيزهما...ولكن ذكر الفؤاد(١) يجعل الاحتمال الأول أرجح وأوقع، وإن كلن التفصيل غير مجزوم به؛ إذ قد يكون الاتصال بالمراكز الأساسية للسمع والبصر، والوعي في الفؤاد دون المرور بالمراكز التي في المخ، وقد يكون الأمر بصورة تفصيلية غير ذلك، ولكن لا شك أن الواقع العلمي الذي نعيشه اليوم قد قرب تصور هذه العملية كثيراً، وما ظَهَرَ يُقَرِّبُ فهم ما لم يظهر ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ "ص/٨٨"...**ويزيد هذا الاحتمال رجحاناً ما تم من إعداد خاص لفؤاد النبي ﷺ كما سبق التكلم عن ذلك في أول الفصل الثاني .**

فإن اعتُرض بالقول: إذا كان جبريلعليه السلام عند نزوله على قلب النبي لتلقينه الوحي القرآني على مسافة قاب قوسين أو أدنى– أفما كان يقرب من النبي ﷺ أكثر من ذلك، أو ينأى عنه أكثر ؟. **فالجواب: إما أن يكون** هذا تصويراً للحالة الغيبية غير المشاهدة لغير الرسول ﷺ لنزول الملَك عليه بالوحي، وهي أشدها عليه، فتكون في غاية

---

(١) ويزيد الأمر جلاء ظهور الفرق بين ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ "النجم/١١"، و ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ "النجم/١٧" إذ الأولى لرؤية النبي ﷺ لجبريل عليه السلام عند نزوله بالوحي عليه بصفة دائمة، والثانية لرؤيته له عياناً في حلقته الأصلية في المرة الثانية من المرتين اللتين شاهد فيهما الرسول ﷺ جبريل عليه السلام في حلقته الأصلية ...هذا إن جُعلت كلمة البصر واردة في معناها الحقيقي المباشر وهو الجارحة المعروفة، وهو الظاهر، كما أنه الذي يدل عليه السياق...ويحتمل أن يكون المراد مركز البصر في الدماغ أو الفؤاد...وعلى كلا الاحتمالين فإن ذكر الفؤاد في الآية الأولى مع علمنا أنه لم يكن الصحابة يشاهدون جبريل عليه السلام إن جاء في الصورة الشديدة للوحي...يؤكد أن الاتصال كان بالمركز الأصلي المباشر للإدراك عند النبي ﷺ...والأمر –بعد– بحاجة لمزيد تفصيل...لعله يكون في طبعات قادمة –إن شاء الله تعالى–.

الدقة في وصف مكان الملَك،والمسافة التي تبعده عن النبيﷺ في هذه الحالة، وإن كان من حواليه لا يراه، **وإما أن يكون** تصويراً لحالة المجيء المشاهد للملَك، وهو كائن عند تمثل الملَك رجلاً، فقد كان يتم للملَك القرب من النبي ﷺ أكثر كحديث عمر المشهور في مجيء جبريل عليه السلام يعلمهم أمر دينهم حيث جعل ركبتيه عند ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، ولكن هذا المجيء المشاهد للملَك لا يتعلق به وحي قرآني؛ **إذ هاهنا حقيقة تتعلق بهيئة الملَك عند الوحي القرآني هي أن الوحي القرآني لا يأتي الملَك فيه إلا بالصورة الأشد .**

فإن اعتُرض بأنه قد جاء: الوحي القرآني في غار حراء والملَك متجسدٌ للنبيﷺ ظاهرٌ بارز ؟. **فالجواب:** بل كان الوحي في غار حراء من أشد ما لقيه النبيﷺ في تلقي الوحي القرآني وذلك ظاهر، حتى رجع النبي ﷺ بالوحي ترجف بوادره([1])، ثم قد جاء أن النبي ﷺ قد شُقَّ صدره هناك، وحسبك بذاك هيئةً وشدةً لو صح، على أن تجسد الملَك له في غار حراء كان في بدايات الوحي تمهيداً لأن يعتاد الاتصال بالملَك دون أن يعتريه ضعف جسماني، ولا شك عقلي في أن الذي يتصل به ليس إلا ملك، ولذا قال صاحب التحرير والتنوير: "فكانت قواه البشرية يومئذ غير معتادة لتحمل اتصال القوة الملكية بها مباشرة، فكان ذاك —يعني التجسد— رفقاً بالنبي ﷺ أن لا يتجشم شيئاً يشق عليه"([2]).

٧- **وبعد ذا القرب تكون مرحلة الإلقاء والتعليم:** حيث يلقي الملَك على النبي ﷺ ما أمره الله ﷻ به أن يلقيه **﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾** "النجم/ ١٠"، وليس إلقاء الملَك من فمٍ إلى فمٍ فحسب، بل يلقيه على قلبهﷺ ... **كأن جبريل عليه السلام يصل رأساً إلى مركز السمع والبصر والوعي الكامل في الفؤاد...إذ إن جارحة البصر(العين)، وجارحة السمع (الأذن) ما هما إلا تحويل وترجمة لما**

([1]) البخاري ٤/١، مرجع سابق .

([2]) التحرير والتنوير ٩٧/٢٦، مرجع سابق .

يُشاهَد ويُسْمَعُ من العالم الخارجي إلى مراكز وعيها في الدماغ ومنه إلى المركز الأصلي للوعي (الفؤاد)...أما المَلَك فيصل مباشرة بكلام مسموع، كما أن صورته تصل مباشرة إلى مركز الفؤاد، فيلقي بالوحي الإلهي على قلب النبي ﷺ، ويسمعه النبي ﷺ سماع أذن وفؤاد بدليل تحريك لسانه بعد المَلَك -وسيُفصَل ذلك في المبحث الذي بعد هذا إن شاء الله ﷻ-، **في حين يرى الصحابة آثار ذلك من الشدة التي تعتري النبي ﷺ ، والتي سموها (بُرحاء الوحي)**...فيلقي المَلَك الوحي حال كون هذا المُلْقَى بلسان عربي مبين، **فيقرؤه جبريل عليه السلام على النبي ﷺ كما أمره الله ﷻ أن يقرأه؛ ولذا نسب الفعل إلى ذاته العلية سبحانه في قوله﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾ مبالغة في التأكيد على أن ما قرأه جبريل عليه السلام هو اللفظ الذي أراد الله ﷻ أن يقرأه، وبالهيئة ذاتها التي أرادها ﷻ**، والنبي ﷺ حال قراءة جبريل عليه السلام مطرق مستمع لا يحرك لسانه —بعد تعليمه ذاك— حتى يقضي جبريل عليه السلام قراءة الوحي عليه، فإذا قضى انطلق جبريل عليه السلام، وقرأه النبي ﷺ كما قرأه جبريل عليه السلام، فلا يعترض معترض على هذا الموضع بالقول: إنا لا نراه يحرك لسانه ترديداً، إذ الإلقاء على قلبه، ومعلوم أن عدم تحريك لسانه كان بعد نزول سورة القيامة([1]) .

ويدل لما سبق تفصيله من مراحل حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: بينما رسول الله ﷺ بفناء بيته بمكة جالس؛ إذ مر به عثمان بن مظعون فكشر إلى رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ : (ألا تجلس ؟) قال: بلى ! قال فجلس رسول الله ﷺ مستقبله، فبينما هو يحدثه، إذ شخص رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء، فنظر ساعة إلى السماء، فأخذ يضع بصره حتى وضعه على يمينه في الأرض، فتحرف رسول الله ﷺ عن جليسه عثمان إلى حيث وضع بصره، وأخذ ينفض رأسه كأنه يستفقه ما يقال له، وابن مظعون ينظر، فلما

([1]) وسيأتي مزيد تفصيل لذلك —إن شاء الله تعالى-عند ذكر حديث المعالجة: المبحث السادس من هذا الفصل .

قضى حاجته، واستفقه ما يقال له، شخص بصر رسول الله ﷺ إلى السماء كما شخص أول مرة، فاتبعه بصره حتى توارى في السماء فأقبل إلى عثمان بجلسته الأولى، قال: يا محمد! فيم كنت أجالسك، وآتيك ما رأيتك تفعل كفعلك الغداة . قال: (وما رأيتني فعلت ؟) قال: رأيتك تشخص ببصرك إلى السماء، ثم وضعته حيث وضعته على يمينك، فتحركت إليه، وتركتني فأخذت تنفض رأسك كأنك تستفقه شيئاً يقال لك، قال: (وفطنت لذاك ؟)، قال عثمان: نعم . قال رسول الله ﷺ :(أتاني رسول الله آنفاً، وأنت جالس) قال: رسول الله؟. قال: (نعم) .قال: فما قال لك ؟ قال: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ "النحل/٩٠ . قال عثمان فذلك حين استقر الإيمان في قلبي وأحببت محمداً([1]) .

وهكذا كان جبريلعليه السلام ينزل بالوحي على خير الأنامﷺ ...فتنزل معه على المؤمنين كلُ سكينة، وكل عزة، وكل نصر...كيف ترى البشائر التي تنزل مع أول معلمٍ لألفاظ القرآن الكريم من الخلق طراًعليه السلام لأشرف متعلمٍ لألفاظ القرآن الكريم من الخلق طراً ﷺ؟ .

وقد قال عتيبة بن عتيبة بن مرداس التميمي الذي شهد حنيناً مع المشركين، فلما رأى المسلمين انفضوا عن النبيﷺ، ثم نُصر برغم ذلك علم أنه جبريلعليه السلام النازل –بإذن الله –بالنصر، فثمَّ أعلن إسلامه:

فضاربوا الناس حتى لم يروا أحداً ... حول النبي إلى أن جَنَّهُ الغسقُ

ثمة نزل جبريل ينصرهم ... من السماء، فمهزومٌ ومعتنقُ

منا، ولو غير جبريل يقاتلنا ... لمنعتنا إذن أسيافنا العُتُقُ

([1]) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣١٨/١، مرجع سابق .

المبحث الثاني:

هيئة إلقاء الوحي القرآني من جبريل عليه السلام على النبي ﷺ:

يدرس هذا المبحث هيئة إلقاء الوحي القرآني بعد أن يكون جبريل عليه السلام قد دنا من النبي ﷺ في مرحلته الأولى، أي مرحلة ما قبل إلقاء الوحي القرآني كلاماً، ولذا انقسم هذا المبحث إلى مطلبين:

المطلب الأول: الهيئة العامة لإلقاء الوحي القرآني .

المطلب الثاني: النزول على القلب .

المطلب الأول: الهيئة العامة لإلقاء الوحي القرآني: فلنبن الكلام الآن ترتيباً على ما سبق في المبحث الأول:

١- ...وإذ قد دنا جبريل عليه السلام من النبي ﷺ، وآن أن يُلْقي عليه الوحي القرآني، ويقرؤه عليه فيجب استصحاب أمرين:

أولهما: أن جبريل عليه السلام هو المقرئ الوحيد للنبي ﷺ، وقد تقدم تقرير ذلك([1]).

وثانيهما: أن جبريل عليه السلام ليس ملكاً عادياً، بل هو الروح([2])كما أن القرآن روح... فتجتمع الحياة الحقة منهما، وإذا كانت الحياة تسري في الجسد الميت عندما ينفخ فيه الروح، فما ظنك بروحٍ يُلَقِّنُ النبي ﷺ روحاً، وجبريل عليه السلام هو الأمين الذي يتسم بأمانة الأداء فلا يخرم مما يؤديه حرفاً، زيادة ولا نقصاً، كما لا يخرم المكان، ولا الزمان، ولذا استهلت آيات وصف كيفية إنزال جبريل عليه السلام بالقرآن بقوله تعالى ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ**﴾ "النحم/١٩٤"، **ويضاف إلى هذا أن قلب النبي ﷺ قد نُزع منه حظ الشيطان،**

([1]) انظر: الفصل الأول- المبحث الرابع- المطلب الثالث .

([2]) انظر: الفصل الأول- المبحث الثاني- المطلب الثاني .

وتم إعداده إعداداً إلهياً([1])، **فلا مجال فيه لمانعٍ ذاتي يمنع أو يشوش على تلقي ألفاظ القرآن الكريم .**

٢- **ينخلع النبي ﷺ من قدرته البشرية** عند رؤيته المَلَك، وسماعه الوحي مع بقائه على خلقته البشرية، فالمراد انخلاع القوى الباطنة، لا الخلقة الظاهرة([2])، **فالرؤية والسماع يكونان من المركزين المباشرين للسمع والبصر في الفؤاد؛ إذ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾** "النجم/ ١١"([3])؛ولذا كان ﷺ يأتيه الوحي شديداً عنيفاً؛ **إذ يتوجب عليه بذل قوى فوق الطاقة البشرية للسماع غير المعتاد بشرياً، والرؤية غير المعتادة بشرياً، والملكة القوية في الحفظ مما لا يعتاد بشرياً**، زيادة في التأكيد على المحفوظ إذ كان ذلك من لوازم جمعه في صدره، وليتمكن من رؤية جبريل عليه السلام وسماعه، وهو ما لا يراه من حوله، ولا يستطيعون سماعه([4])، وعبر عن ذلك ابن خلدون-رحمه الله تعالى- فقال: "وصنفٌ مغطورٌ على الانسلاخ من البشرية جملة، جسمانيتها وروحانيتها إلى الملائكة من الأفق الأعلى، ليصير في لمحة من اللمحات ملكاً بالفعل، ويحصل له شهود الملأ الأعلى في أفقهم، وسماعُ

([1]) انظر: الفصل الثاني- المبحث الأول .

(٢) فلا يَرِدُ على هذا الكلام القول بالتناسخ، أو قدرة البشر على التشكل؛ إذ ذاك ليس لهم، ولا في إمكانهم، وينبغي أن يفسر كلام العلماء الذين سينقل عنهم -بعد قليل- في هذا الموضوع بهذا التفسير؛ إذ إن بقاء النبي ﷺ في خلقته البشرية آن نزول الوحي عليه ثابت تواتراً كما يُلاحظ ذلك في النصوص التي ترد في هذا البحث .

([3]) وما علاقة ذلك بمركزي السمع والبصر الكائنين في الدماغ ؟، محل نظر وبحث بدأت بعض الإشارات العلمية بالتلميح إليها، والمستقبل واعد بمزيد تجلية لهذا الموضوع .

([4]) وقال الأصفهاني في أوائل تفسيره: "اتفق أهل السنة والجماعة على أن كلام الله ﷻ منزل، -إلى أن قال مبيناً أن الله ﷻ علّم جبريل عليه السلام كيفية قراءة كلامه في السماء وهو ما سبق في المباحث الماضية- ثم جبريل عليه السلام أداه في الأرض وهو يهبط إلى المكان، وفي ذلك طريقتان:

إحداهما: أن النبي ﷺ انخلع من صورة البشرية، إلى صورة الملكية، وأخذه من جبريل عليه السلام، **وثانيهما**: أن الملك تخلع إلى البشرية حتى يأخذه النبي ﷺ منه، والأولى أصعب الحالين" فتح الباري ١٢٣/٣، مرجع سابق، ولا شك أن الصورتين واردتان كما في حديث الحارث بن هشام المتقدم ص٦٨ .

الكلام...([1])، والخطاب الإلهي في تلك اللمحة، وهؤلاء الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم- جعل الله ﷻ لهم الانسلاخ من البشرية في تلك اللمحة، وهي حالة الوحي فطرةً فطرهم الله ﷻ عليها، وجِبِلَّةً صورهم فيها، ونزههم عن موانع البدن، وعوائقه، ما داموا ملابسين لها بالبشرية، بما ركب في غرائزهم من القصد، والاستقامة التي يحاذون بها تلك الوجهة، وركز في طبائعهم رغبةً في العبادة، تكشف بتلك الوجهة، فهم يتوجهون إلى ذلك الأُفق بذلك النوع من الانسلاخ متى شاءوا، بتلك الفطرة التي فطروا عليها، لا باكتساب، ولا صناعة، فلذا توجهوا، وانسلخوا عن بشريتهم، وتلقوا في ذلك عن الملأ الأعلى ما يتلقونه عاجوا([2])به على المدارك البشرية منزلاً في قواها لحكمة التبليغ للعباد"([3]).

- **وغير خافٍ أن المقتضى المنهجي هنا** يجب أن يتركز في أن جهود الحفظ البشرية الضخمة للقرآن الكريم خلال القرون، المؤيدة بالرعاية الإلهية إنشاء، وإعداداً، وإمداداً، ومتابعة، يجب أن تساوي في وزنها وتركيزها هذه اللحظات التي يتلقى فيها النبيﷺ .وبعد ذلك يكون النزول بالقرآن على قلب النبي ﷺ، وهو المطلب الثاني .

المطلب الثاني: النزول على القلب ([4]): إن إلقاء جبريل عليه السلام ألفاظ القرآن على النبي ﷺ لا يكون خطاب فمٍ لفم، بل قراءة فمٍ على قلب﴿**عَلَى قَلْبِكَ**﴾، فلا يكون ثم أي

([1])في الأصل: الكلام النفساني...والبحث قائم على ما قرره محققو أهل السنة والجماعة من أن الكلام حقيقي لا نفساني .

(٢) أي مالوا وعادوا به بعد سماعه في طبيعة البشر .

([3]) عبد الرحمن بن خلدون ت ٨٠٨ هـ: مقدمة ابن خلدون ٩٨، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: خليل شحادة، مراجعة: د. سهيل زكار، ط ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م - دار الفكر - بيروت، وإن كان التعبير عن هذه الحالة الدقيقة التي يكون فيها الرسول متصلاً بالمَلَك بحاجة إلى حذر في الكلمة خشية التزيد أو الإيهام، ولذا فقول ابن خلدون: "متى شاءوا " فيه نظر كبير بل متى أذن الله ﷻلهم، فجاءهم المَلَك لا أنهم هم يذهبون...ولعل من حكم ذلك بقاء صبغتهم البشرية أغلب حتى لا تكون حجة في عدم الاقتداء ...

([4]) أفرد بالعنونة لجلالته، وعظيم خطره .

ضعفٍ للبشر، ولا نقصٍ يتسم به البشر، ولا لجلجةٍ تصحب إدراك البشر؛ إذ القراءة موجهة إلى مركز إدراك البشر مباشرة، وهو المركز الذي نزع منه جبريل عليه السلام حظ الشيطان، وملئ حكمة([1])...فينخلع النبي ﷺ عندها من بشريته، وهو بشر! أي ينخلع من القدرات البشرية المحدودة مع بقائه على خلقته البشرية...وذلك لإزالة أدنى خاطر يخطر على حائم حوله الشياطين، من أن محمداً ﷺ قد يفقد حرفاً من هول الموقف، أو من تأثير الطبيعة، ولذا كان هذا التصوير الدقيق لنزول القرآن على محمد ﷺ ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾، وأُكِّدَ عليه في القرآن مرتين: في "سورة البقرة/٩٧"، وفي "سورة الشعراء /١٩٤".

المعنى: لم تخرج أقوال المؤولين فيها على أمرين:

أ - **على روحك:** لأن الروح إحدى إطلاقات القلب كما قال الراغب -رحمه الله تعالى-، وقال الآلوسي -رحمه الله تعالى-: "وكون الإنزال عليه؛ لأنه المدرك، والمكلف دون الجسد، وقد يقال: لما كانت له ﷺ جهتان: جهةٌ ملكيةٌ يستفيض بها، وجهة بشرية يفيض بها - جعل الإنزال على روحه ﷺ لأنها المتصفة بالصفات الملكية التي يستفيض بها من الروح الأمين، وللإشارة إلى ذلك قيل ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ دون عليك الأخصر، وقيل: إن هذا لأن القرآن لم ينزل في المصحف كغيره من الكتب"([2]).

ب - **على العضو المخصوص:**

وتخصيصه بالإنزال عليه قيل: للإشارة إلى كمال تعقله ﷺ وفهمه ذلك المنزل، حيث لم تعتبر واسطة في وصوله إلى القلب الذي هو محل العقل...وقيل: للإشارة إلى صلاح قلبه ﷺ وتقدسه حيث كان مَنْزِلاً لكلامه تعالى؛ ليعلم منه حال سائر أجزائه ﷺ، فإن القلب رئيس جميع الأعضاء، وملكها، ومتى صلح الملك صلحت الرعية"([3]).

([1]) انظر: الفصل الثاني - المبحث الثاني .

([2]) روح المعاني ١٨١/١٩، مرجع سابق .

([3]) روح المعاني١٨٢/١٩، مرجع سابق .

فلم تخرج أقوال المؤولين في معنى (القلب) عن هذين الأمرين:

١- الروح .

٢- العضو المخصوص ... **وعلى كل منهما فقد أُريد من الإنزال على القلب: المكان الناسب الذي هُيأ التهيئة المناسبة لجهود الحفظ**، ثم القراءة والإقراء؛ ليخرج إلى عالم البشر، وكان النبي ﷺ يسمعها، ويعيها بقوة إلهية قدسية، لا كسماع البشر منه ﷺ، وتنفعل عند ذلك قواه البشرية، ولهذا تظهر آثارها على جسده الشريف ما يظهر، ويقال لذلك (**بُرَحاء الوحي**) حتى يُظَنَّ في بعض الأحايين أنه أُغمي عليه ﷺ وقد يُظَن أنه ﷺ أَغفى([1]).

وقد فتح الله -تعالى ذكره- أذهان البشرية في عصرها الحاضر على حقائق علمية ضخمة تقرب لنا سر نزول جبريل عليه السلام بألفاظ القرآن على قلب النبي ﷺ، فإن جبريل عليه السلام تعدى أداة التوصيل السمعي لدى البشر وهي الأذن الخارجية إلى مركز السمع مباشرة، وأداة التوصيل البصري لدى البشر وهي العين الخارجية إلى مركز البصر مباشرة...ويزيد هذا تقريباً أن يقال: لما كان القلب يتلقى الصوت كما يرى الصورة في المنام...والجارحة المباشرة من عين وأذن نائمة مغطاة...ثم إذا استيقظ تذكر كله في اليقظة...وقد جاء التشريح الطبي مؤكداً حقيقة مراكز السمع والبصر، وأنها مراكز في المخ تعي ما يصل إليه عن طريق الجوارح كما تعي ما يصل إليها عن طريق الرؤى المنامية، وما قد كُشف يقرب لنا ما لم يكشف مما قد غاب عنا، وقد كانت أُولى مراحل الوحي التي هيأ بها النبي ﷺ لتلقي الوحي المباشر هي الرؤى المنامية الصادقة، ثم رؤيته للملَك في منامه كما سبق تفصيل ذلك في الفصل الثاني، وحالة الوحي في النوم مقربةٌ لحالة الوحي في اليقظة...مما قد يقرب لنا فهم كيفية الوحي وحدوثه،

([1]) انظر: روح المعاني/١٨٢، مرجع سابق .

واستيعاب كيفية تلقي النبي ﷺ للوحي بواسطة الاتصال بعالم الملائكة ...بطريقة يرى الصحابة آثارها في النبيﷺ من تصبب العرق في اليوم الشديد البرد، وترجيع اللسان، وثقل جسم النبي ﷺ([1]) دون أن تشاهد أبصارهم صورة الملك، أو تسمع آذانهم صوته...لأن الاتصال كان في مستوى لا يدركونه، ولكنهم يسمعون قرآناً معجزاً لا تنقضي عجائبه، ولا تشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد .

وذكر أبو حيان -رحمه الله تعالى- سبعة أقوال في تخصيص ذكر القلب([2]) حاصلها راجع إلى قولين:

أ- **فالأول والثاني كالشيء الواحد مجموعهما:** أن القلب محل التلقي([3]) لهذا الأمر الخطير لا سواه، وإليهما يؤول السادس .

ب- **والثالث والرابع والخامس تؤول إلى معنى واحد هو:** كونه أشرف عضوٍ في الجسد، وإليه ما يرجع السابع .

وكلاهما متفرع عن القول الثاني الذي ذكره الإمام الآلوسي-رحمه الله تعالى-(العضو المخصوص)، بيد أنه لا فائدة في الثاني من حاصل أقواله، لو كان مجرد تكنية عن الجملة الإنسانية، وخُصَّ لشرفه؛ إذ لقائلٍ أن يقول: (عليك) أحصر وأظهر، وإذ الأمر كذلك فلا

([1]) انظر: المبحث الخامس من هذا الفصل .

([2]) أبو حيان في البحر المحيط ٣٢٠/١، مرجع سابق، ونص قوله: "خص القلب و لم يأت بعليك الأحصر، لأن القلب هو محل العقل، وتلقي الواردات، أو لأنه صحيفته التي يرقم فيها، وخزانته التي يحفظ فيها، أو لأنه سلطان الجسد، أو لأن القلب خيار الشيء وأشرفه، أو لأنه بيت الله، أو لأنه كنى به عن العقل إطلاقاً للمحل على الحال به، أو عن الجملة الإنسانية؛ إذ قد ذكر الإنزال عليه في أماكن ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾"طه/٢" ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾" النساء/١١٣"، أو يكون إطلاقاً لبعض الشيء على كله" .

([3]) فقد نزل جبريل بالقرآن على قلب الرسول ﷺ [فتلقاه تلقياً مباشراً، ووعاه وعياً مباشراً] سيد قطب: في ظلال القرآن ٢٦١٧/٥، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م، دار الشروق - بيروت . .

بُدَّ لتخصيصه من مغزى: هو ما ذكر في الأول من الحاصل، **كما يلوح للباحث أمر آخر:**

هو أن ما أظهره اليهود من عدواة جبريلعليه السلام وادعاؤهم مجيئه بالخراب([1]) غمز في أمانته، أو لمز في دقة نقله؛ إما لأن الوحي ليست مهمته، أو لشدته على البشر أو غير ذلك، فأثنى عليه أبلغ الثناء، وبَيَّنَ أن اللمز فيه أو إظهار العداء له هو لله ﷻ ولملائكته ولرسله عداء، وأنه وميكال قرينا إخاء، وسبق ذلك كله ببيان دقة نقله للوحي على فؤاد النبي ﷺ وأنه **﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾**"البقرة/٩٧" .

الكاف في ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾:

وأما سبب التعبير عن ذلك بالكاف في قوله **﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾** دون الياء الدال على المتكلم فهو التأكيد المطرد على المصدرية الإلهية للقرآن الكريم، ففيه إيماء إلى الحفظ للفظ والمعنى، وصرح به في آية الحجر، وتفصيل ذلك في المبحث الثامن من هذا الفصل: كيفية قراءة الرسول ﷺ .

الحرف ﴿عَلَى﴾:

وأتى بلفظ **﴿عَلَى﴾** لأن القرآن مُسْتَعْلٍ على القلب،، والقلب سامعٌ له مطيعٌ يتمثل ما أمر به ويجتنب ما نهى عنه، وكانت أبلغ من (إلى)؛ لأن (إلى) تدل على الانتهاء فقط، و**﴿عَلَى﴾** تدل على الاستعلاء، وما استعلى على الشيء يتضمن الانتهاء إليه([2]) .

ويلوح للباحث ثلاثة أمور في حرف الجر ﴿عَلَى﴾:

أولها: أن الاستعلاء مستغرق للملكية، مهيمن على المحل، فارض لسلطانه، واضح ثقله وسيطرته في مكانه، وكأنه أُريد بذلك أن القرآن عندما ينزله جبريلعليه السلام على قلبك قد

([1]) انظر في ذلك: صحيح البخاري ١٢١١/٣، مرجع سابق .

([2])انظر: البحر المحيط٣٢٠/١، مرجع سابق .

تتام قبضهُ على القلب، وسيطرته عليه، فهو مهيمن على القلب في لفظه، لا يستطيع القلب أن يفلت منه مثقال ذرة، وفيه: الإشعار بأن ألفاظه مفروضة على القلب فرضاً، فلا مجال لزيغ حروفها عنه، ولا لتحريف هيئتها، مع حب قلب الرسولﷺ لها كما سيأتي([1])، ولم تبق فيه ذرة تتأثر إلا به، ولا تحتفل إلا له، فهو خلي عن غيره، وفي هذا تمام الحفظ والفهم والاهتمام، ولذا قال الصاوي -رحمه الله تعالى-: "عبر بـ﴿عَلَى﴾ لتمكنه، وانصبابه، ورسوخه؛ فإن الشيء إذا صب من أعلى لأسفل رسخ وثبت"([2]).

وثانيها: أن على مؤكدة للإنزال من أعلى إلى أدنى: كما قال تعالى في آل عمران ﴿**قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا...**﴾ "آل عمران /٨٤" فالخطاب للنبي ﷺ مُوَجَه، والمُنْزَل إنما هو مُنْزَلٌ عليه من السماء إلى حيث هو، بخلاف آية البقرة﴿**قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا...**﴾"البقرة/١٣٦" فإن الخطاب لصحابته، ثم لأمته -من بعد- والإنزال إنما يكون إليهم؛ إذ يتضمن حرف ﴿**إلى**﴾ معنى المجاورة، ويجعل فعله يتضمن معنى الإيصال، فليس ثم أعلى ولا أدنى، كأنهم قالوا: آمنا بالله وما أنزل على رسوله مما وصل إلينا...لأنه إنما وصل إليهم من محمدﷺ وهو بجوارهم لا فوقهم، ولكن لارتباطه بأنزل أفاد أمراً آخر -لاقتضاء الإنزال أعلى وأدنى- هو أن الوحي أُنزل على غير المخاطبين ثم وصل إليهم... فقد تضمن الفعل: أنزل، والحرف﴿**إلى**﴾ ذلك ببلاغة بديعة، وإعجاز عظيم ...ومن أسراره أنهم جعلوا -بهذا التعبير- ما أنزل على الرسولﷺ هو ذاته ما وصل إليهم دون ريب...ومعلوم أن التضمين عند العلماء مُقَدَّمٌ على تبادل الحروف([3]) .

وثالثها: أنه قال على ولم يقل (في) لئلا يتوهم أن جبريلعليه السلام ألقى القرآن في قلب النبي ﷺدون سماع، وسيأتي مزيد تفصيل له -إنْ شاء الله تعالى-([4]).

([1]) انظر: حديث المعالجة في المبحث السادس من هذا الفصل .

([2]) حاشية الصاوي ٧٢/١، مرجع سابق .

([3]) (ابن تيمية)أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ت ٧٢٨هـ، شيخ الإسلام: مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية ٣٣٠/١٣، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي، ١٤٢١ - ١٩٩١م، دار عالم الكتب الرياض .

([4]) انظر: المبحث السابع من هذا الفصل .

إعداد القلب مسبقاً:

وجهت لقلب النبي ﷺ عناية فائقة، وكان جبريل عليه السلام هو الذي هيأ محمداً ﷺ واعتنى بقلبه خاصة في كل مرة يأمر الله ويأذن بذلك كما سبق في حديث شق الصدر([1])، وقد كان قلبه يحس ويعقل حتى إن نامت عيناه، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلاً، فاضربوا له مثلاً، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: مثله كمثل رجل بنى داراً، وجعل فيها مأدبة، وبعث داعياً فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار و لم يأكل من المأدبة، فقالوا: أولوها له يفقهها، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان فقالوا: فالدار الجنة، والداعي محمد ﷺ فمن أطاع محمداً ﷺ فقد أطاع الله ومن عصى محمداً ﷺ فقد عصى الله، ومحمد ﷺ فرق بين الناس)([2])، وفي رواية الترمذي عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً، فقال: (إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي وميكائيل عند رجلي، يقول أحدهما لصاحبه اضرب له مثلاً، فقال: اسمع سمعت أذنك، واعقل عقل قلبك، إنما مثلك ومثل أمتك كمثل ملك اتخذ داراً ...)الحديث([3]) .

فقد اشتمل النزول على قلبه ﷺ:

١-على التحفيظ والتفهيم والتثبت: كما قال الزمخشري -رحمه الله تعالى-:"أي حَفَّظَكه، وفَهَّمَك إياه، وأثبته في قلبك إثبات ما لا ينسى كقوله ﷻ **﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ﴾**"([4])، **وخص القلب**، والمعنى عليك لأنه محل الوعي والتثبت، وليعلم أن المنزل على قلبه عليه السلام محفوظ لا يجوز عليه التبديل، ولا التغيير، وحرف **﴿على﴾** مستعار للدلالة على التمكن مما سمي بقلب النبي ﷺ مثل استعارته في قوله ﷻ

([1]) انظر: الفصل الثاني -المبحث الأول-المطلب الأول .

([2]) صحيح البخاري ٦/٢٦٥٥، مرجع سابق .

([3]) الجامع الصحيح سنن الترمذي ٥/١٤٥، مرجع سابق .

([4]) الكشاف٣/١٢٦، مرجع سابق .

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ "البقرة/٥"[١]، **وقد تقدم التوضيح بأن إرادة القلب حقيقية وليست مجازية...وأن المراد الوصول إلى محل الوعي المباشر بعد هيئته سابقاً لذلك .**

٢-**كما اشتمل النزول على قلبهﷺ على اللفظ كما هو على المعنى تصريحاً لا تلويحاً**: كما قال الزمخشري:"ولو كان أعجمياً لكان نازلاً على سمعك، دون قلبك لأنك تسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها ولا تعيها"[٢].

واستدل أبو حيان -رحمه الله تعالى- على أنه كانﷺ يسمع من جبريلعليه السلام الأحرف بقوله ﷻ: **﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾** "الشعراء/١٩٥"، فقال: "الظاهر تعلق**﴿بلسان﴾** بـ**﴿نزل﴾**، فكان يسمع من جبريلعليه السلام حروفاً عربية"، قال ابن عطية -رحمه الله تعالى-:"وهو القول الصحيح، وتكون صلصلة الجرس صفة لشدة الصوت، وتداخل حروفه، وعجلة مورده، وإغلاظه"[٣].

...وبذا تم حفظ الألفاظ من زواياه الكلية[٤].

٣-**التمكن من حفظ الألفاظ وجمعها**، دون أن ينخرم منها شيء أصلاً أو أداء .

اعلُ موكب الوحي على كل رائم طمس النور بفمه ....اعلُ موكب الوحي..أو ما يكفي: جبريلعليه السلام في قيادتك، ومحمدﷺ في ريادتك؟..اعلُ موكب الوحي..يتراءى لنا خبرُك..حتى ترتفع أعلام الحب فداءً بالمهج...

طرقتك زائرة، فحي خيالها.....بيضاء، تخلط بالحياء دلالها
قادت فؤادك، فاستقاد، وقبلها.....قاد القلوب إلى الصبا فأمالها
هل يطمسون من السماء نجومها.....بأكفهم؟ أم يسترون هلالها؟
أم يدفعون مقالة عن ربه؟.....جبريل بلغها النبي فقالها.

---

(١) التحرير والتنوير ٨٨٩/١٩، مرجع سابق .

(٢) الكشاف٣/١٢٧، مرجع سابق، وانظر: تفسير القرطبي ١٣٨/١٣، مرجع سابق .

(٣) تفسير ابن عطية ١٤٨/١١، مرجع سابق .

(٤) كما قال أبو حيان في البحر المحيط ٧ /٤٠، مرجع سابق .

المبحث الثالث:

نـزول جبريل عليه السلام توقيفي:

يراد من هذا المبحث التأكيد على حقيقة هامة في نقل القرآن من السماء إلى الأرض هي: التوقيفية في ذلك النقل، ذلك بأن جبريل عليه السلام ليس له من أمر الوحي القرآني شيء، فنزوله كان بأمر الله عز وجل، وبعد صدور أمره سبحانه وتعالى، يكون نزول جبريل عليه السلام بإذنه، وعليه فإن نزول جبريل عليه السلام بأمر وإذن إلهي قبل النزول، مستصحبان مع النزول: كما هو ظاهر من قوله تعالى ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ "البقرة/٩٧"؛ ولذا قال أبو السعود-رحمه الله تعالى-:﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ "بأمره، وتيسيره، وفيه تلويح بكمال توجه جبريل عليه السلام إلى تنزيله، وصدق عزيمته عليه السلام، وهو حال فاعل نزله "([1])، وقال الصاوي -رحمه الله تعالى-: "المراد بالإذن الأمر لا العلم"([2]) .

فاجتمع في قوله ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: نزول جبريل عليه السلام بالقرآن عن أمر الله السابق، ثم تيسيره له ذلك وتسهيله، وهو مؤكد للمصدرية الإلهية للقرآن الكريم، فما كان لجبريل عليه السلام من هوى شخصي، ولا إرادة ذاتية في أن ينزله على قلبك، لأنه لا يعدو أن يكون منفذاً لإرادة الله عز وجل، وإذنه في تنزيل القرآن على قلبك، ومنه نستنتج أمراً بالغ الأهمية هو: **التوقيفية في نزول الملَك:**

فعن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يا جبريل!ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا، فنزلت ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ "مريم/٦٤" إلى آخر الآية، قال: كان هذا الجواب لمحمد صلى الله عليه وسلم([3])، فقد تجذرت صفة الحق في كل أجزاء

([1]) تفسير أبي السعود١/ ٢٢٠، مرجع سابق .

([2]) حاشية الصاوي ٧٢/١، مرجع سابق، ولا مانع من إرادة الأمرين، بل هو الظاهر، وبلاغة القرآن تشير إليه .

([3]) صحيح البخاري ٢٧١٣/٦، مرجع سابق .

الإنزال والتعليم:الحق هو المُنْـــزِل، والحق في المنْـــزَل، الحق في النـــزول، كما في قوله ﷻ **﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾** "الإسراء/١٠٥" .

فإذا كانت التوقيفية صفة ذاتية للنـــزول، فكيف المنـــزَل به؟ .

وفي حرف الباء في قوله تعالى **﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾** يظهر معنى المصاحبة والملابسة لأمـــر الله في نزوله، لا معنى التجاوز والاجتهاد، ثم أخذ الإذن، فهو أمر الله ﷻ وإذنـــه الـــذي اختاره؛ إذ معلوم أن هذا التعبير يفيد أن الفعل تم بعد الإذن، كما قال ﷻ **﴿لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلا بِإِذْنِهِ﴾** "هود/١٠٥" **﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ﴾** "البقرة/٢٥٥"، مع أن البـــاء تفيد الملاصقة، وهي من أهم معاني الباء(١)، **فقد كان الإذن الإلهي أمراً وإذناً واقعَيـــن قبل النـــزول، ملاصقَين للنـــزول، مُسْتصحبَين حتى تمام أداء الوظيفة التعليمية** .

وما سبق كان وصفاً لعمل المُعَلِّمِ المُلْقي عليه السلام، فلننظر في عمل طالبه المتلقـــن ﷺ ، وهو المبحث التالي:

فائدة: قال ابن حجر-رحمه الله تعالى- في فتح الباري ٤٢٩/٨، مرجع سابق: " تنبيه: الأمر في هذه الآية معنـــاه الإذن، بدليل سبب النـــزول المذكور، ويحتمل الحكم أي تنـــزل مصاحبين لأمر الله عباده بما أوجب عليهم أوجرم، ويحتمـــل أن يكون المراد ما هو أعم من ذلك عند من يجيز حمل اللفظ على جميع معانيه " .

(١) قال ابن هشام -رحمه الله تعالى- في مُغني اللبيب ١٠١/١ متكلماً عن معاني الباء: "الإلصاق، قيل: وهو معـــنىً لا يفارقها فلهذا اقتصر عليها سيبويه" انظر: ابن هشام الأنصاري ت ٧٦١هـــ: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيـــق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، طبعة بدون ١٤٠٧هـــ - ١٩٨٧م .

المبحث الرابع:

مظاهر اجتهاد النبي ﷺ في تلقي القرآن من جبريل عليه السلام قبل نزول التوقيف الإلهي:

اجتهد النبي ﷺ في تطبيق هيئات تمكنه من حفظ القرآن عند إلقاء الملك له، بيد أن جلالة الأمر، وعظمة قضية التلقي من السماء للأرض منعته من الاجتهاد حتى في مثل هذه الجزئية بل صار فعله توقيفياً، فلم يقر على اجتهاد، وبين له هيئة تلقيه، ولعل أهم حكم تأخير إنزال الأمر له بكيفية تلقي القرآن أن يعلم المسلمون من بعده ضرورة الوقوف عند التوقيف الإلهي في تلقي القرآن، وأن النبي ﷺ نُهي عن بعض اجتهاداته المخالفة للتوقيف الإلهي في طريقة التلقي فكيف غيره ؟ .

فمن مظاهر اجتهاده الأولى:

١- **تحريك اللسان بالقرآن قبل فراغ جبريل عليه السلام منه:** وهو ظاهر آية سورة طه ﴿...وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ...﴾"طه/١١٤"، وآيات سورة القيامة﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ "القيامة/١٦" فإنه كان يبادر إلى أخذه ويسابق المَلَك في قراءته، ولهذا قال ﷻ ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ كما قال ﴿وَلا تَعْجَلْ ...﴾"([1]).

وهذه الحركة تأخذ طابع العجلة لاستذكار السابق ودراك اللاحق، وفي رواية لحديث ابن عباس رضي الله عنه في المعالجة: (كان رسول الله إذا نزل عليه الوحي يلقى منه شدة، وكان إذا نزل عليه عرف في تحريكه شفتيه، يتلقى أوله ويحرك به شفتيه خشية أن ينسى أوله قبل أن يفرغ من آخره .. الحديث([2])، وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن: كان يحرك به لسانه يتذكره فقيل له: إنا سنحفظه عليك([3])، وللطبري من طريق الشعبي:

([1]) تفسير ابن كثير٤/٣٨٣، مرجع سابق .

([2]) انظر: تفسير ابن كثير ٤/٤٥٠، مرجع سابق، وقد بحثت عن هذا النص بلفظه في مظانه من كتب الحديث فلم أجده، والألفاظ الأخرى تدل على معناه، وانظر فتح الباري ١/ ٣٠، مرجع سابق .

(كان إذا نزل عليه عجل يتكلم به من حبه إياه)([٤]).

وظاهر أنه كان يتكلم بما يلقي إليه منه أولاً فأولاً من شدة حبه إياه، وخوفه من تفلته، فأمر أن يتأنى إلى أن ينقضي النزول([٥]) .

٢- **دراسته بحيث يشق عليه** (وهذا أعم من السابق)كما قال الضحاك:"السبب أنه كان ﷺ يخاف أن ينسى القرآن، فكان يدرسه حتى غلب ذلك عليه وشق فنزلت"([٦]).

٣- **التعجل في السؤال عن معانيه**:كأنه كان يعجل في الحفظ، والسؤال عن المعنى جميعاً كما يُظهر بعض المتحمسين من طلبة العلم ونحوه﴿**وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ**﴾ "طه/١١٤"([٧]) .

٤- **القول القلبي والاستفزاز العاطفي** بالإضافة إلى حركة اللسان خشية انفلات القرآن، وهو مستلزم لشدة اهتمام الفؤاد بالمُلْقَى؛ إذ أنه يُلمح بازاء عجلة اللسان عجلة الفؤاد المسببة لاضطراب القلب .

والمراد أن شغل اللسان كان بحركة السابق، والقلب بتثبيت اللاحق .

عند ذاك نزلت آيات سورة القيامة فقيل له ﴿**لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ**﴾ بالقرآن قبل فراغ جبريل عليه السلام منه ﴿**لِتَعْجَلَ بِهِ**﴾ أي بقراءته، وحفظه خوف أن ينفلت منه([٨]) فنُهِيَ عن اجتهاده، وبُيِّنَ له كيف يتلقى القرآن، وآيات سورة القيامة تصف ذلك بدقة؛ إذ إن هذه الآيات ونحوها دائرة حول تلقي الوحي من المَلَك، ففيها"تعليم من الله ﷻ لرسول الله ﷺ في كيفية تلقيه الوحي من المَلَك"([٩]).

فقد استبان أن التوقيف في الوحي القرآني قد شمل هيئة الاستماع لتلاوة المَلَك .

([٤]) انظر: حديث المعالجة في المبحث السادس من هذا الفصل .

([٥]) انظر: فتح الباري ٦٣٨/٨، مرجع سابق .

([٦]) البحر المحيط ٨ /٣٨٧، مرجع سابق .

([٧])البحر المحيط ٣٨٨/٨، مرجع سابق .

([٨]) تفسير الصاوي ٣٥٣/٤٥، مرجع سابق .

([٩]) تفسير ابن كثير ٣٨٣/٤، مرجع سابق .

المبحث الخامس:

سمات الرسول ﷺ حين نزول الوحي القرآني عليه:

إذا كان المبحث السابق قد تحدث عن مظاهر اجتهاد رسول اللهﷺ في تلقي الوحي القرآني، وعن نهيه عن ذلك؛ فقد لزم معرفة سماتهﷺ حين تلقى الوحي القرآني، التي أبان بها عن خصائص التوقيف الإلهي في تلقي الوحي القرآني، وهو المراد من هذا المبحث.وهذه السمات تتلخص في الآتي:

١- **تفريغ قلبه ﷺ وحسه، وتخلية فكره إلا في المُتَلَقى**: ولذا كانت الغطة في أول نزول جبريل عليه السلام عليه([1])، كما كان الوحي القرآني يأتيه في مثل صلصلة الجرس.

وصلصلة الجرس([2]): هو صوت متدارك لا يدرك في أول الوهلة كصوت الجرس، أي أن الوحي يجيء في صورة وهيئة لها مثل هذا الصوت، فنبه بالصوت غير المعهود على أنه يجيء في هيئة غير معهودة فلذا قابله بقوله في صورة الفتى (وفي لفظ: الرجل)، فصلصلة الجرس مثال لصوت الوحي، **والصلصلة** -بصادين مهملتين مفتوحتين بينهما لام ساكنة- في الأصل صوت وقوع الحديد بعضه على بعض، ثم أطلق على كل صوت له طنين، وقيل هو صوت متدارك لا يدرك في أول وهلة، والجرس: الجلجل الذي يعلق في رؤوس الدواب واشتقاقه من الجرس([3]) بإسكان الراء([1]).

([1]) كما رواه البخاري ٣/١، مرجع سابق، وفي النهاية في غريب الأثر ٣٢٧/٢، ٣٤٢/٣، مرجع سابق: "في حديث المَبْعث: (فأخذَ جبريلُ بحلقي فسأبني حتى أجْهَشْتُ بالبُكاء): السَّأْب العَصْر في الحَلْق كالخَنق ومثله غتت ففي حديث المَبْعَث (فأخذني جبريل فغتني حتى بلغ مني الجَهْد): الغَتُّ والغَطُّ سواء كأنه أراد عَصَرني عَصْراً شديداً حتى وجَدْت منه المَشقَّة كما يَجِد مَن يُغْمَس في الماء قَهراً"، وفي فتح الباري ١٠/١، مرجع سابق: "قوله (فغطني) بغين معجمة وطاء مهملة وفي رواية الطبري بتاء مثناة من فوق كأنه أراد ضمني وعصرني، والغط حبس النفس، ومنه غطة في الماء، أو أراد عمني ومنه الخنق، ولأبي داود الطيالسي في مسنده بسند حسن (فأخذ بحلقي)" .

([2]) كما في حديث الحارث بن هشام الذي تقدم في الفصل الثاني- المبحث الثالث ص٦٨ .

([3]) ومنه قيل للهمزة الحرف الجرْسي لشدته وجلادته . انظر: (ابن الجزري) شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد ابن محمد بن علي ت ٨٣٣هـ: التمهيد في علم التجويد ص٤٦، تحقيق غانم قدوري الحمد، ط٣، ١٤٠٩هـ -١٩٨٩م، مؤسسة الرسالة - بيروت .

والحكمة في تقدم هذا الصوت الشديد: أن يقرع الوحي سمعه ﷺ فلا يبقى فيه مكان لغيره([٢]) .

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن السلسلة (أو الصلصلة) ظاهرةٌ صوتيةٌ قويةٌ مهابةٌ تظهر مع كل إنزال للوحي الإلهي، وقد تقدم حديث النواس بن سمعان: (إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء صلصلة)([٣])، وفي قصة حنين حين رمى النبي ﷺ على وجوه العدو التراب، فأخذ كفاً من تراب، يضرب به وجوههم، وقال: (شاهت الوجوه)، فهزمهم الله ﷻ، فحدث أبناؤهم عن آبائهم أنهم قالوا: لم يبق منا أحد إلا امتلأت عيناه وفمه تراباً، وسمعنا صلصلة بين السماء والأرض كإمرار الحديد على الطست([٤]).

فقد كانت هذه الظاهرة الصوتية تدل على جلالة الخطب، وعظم الأمر، وتصاحب نزول المَلَك وفعله القوي الشديد، وهي لا شك داعية إلى تفريغ القلب وانشغاله بما صاحبها دون غيره .

٢-المعاناة في تلقي الوحي: فقد **كان نزول الوحي القرآني، يستلزم أمراً زائداً على الطباع البشرية؛** وذلك ليتم التأهل لاستماع الوحي القرآني، ثم لحفظه ووعيه ومن ثم تبليغه، وهي مسألة تستدعي النظر مع ما عرف عن العرب في ذلك الوقت من الحفظ المفرط والذاكرة القوية، لكأن هذه الخاصة التي تميز بها العرب لا تكفي للمحافظة على نص القرآن، أو تكفي، لكن لمزيد التأكد والتأكيد وتوثيق النص القرآني .

---

(١) انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري ١/٣٥، مرجع سابق، ونحوه نقل السندي في حاشيته على سنن ابن ماجة ٢/١٤٦، مرجع سابق .

([٢]) فتح الباري ١/٣٧، مرجع سابق .

([٣]) انظر: الفصل الأول- المبحث الثالث .

(٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥/٢٨٦، مرجع سابق، ومعناه في: (أبو داود)سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي ت٢٧٥هـ: سنن أبي داود ٤/٣٢، مراجعة: محمد محيي الدين عبد الحميد، وقال الشيخ الألباني: "حسن" .

ولأن النبي ﷺ لم يخرج عن حقيقته البشرية، مع زيادة الاختصاص عنهم في كونه المصطفى من الله للرسالة ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَسُولاً﴾ "الإسراء/ ٩٣"؛ فقد اقتضى ذلك أن يكون في طبيعة أقوى من مجرد كونه بشراً حال تلقيه الوحي مع المحافظة على حقيقته البشرية، ولذا كان يعاني شدة هائلة من الوحي القرآني بصفة خاصة؛ لأنه النازل على قلبه، وفيه يقول ابن حجر -رحمه الله تعالى-: "معاناة التعب والكرب عند نزول الوحي لما فيه من مخالفة العادة، وهو كثرة العرق فإنه يشعر بوجود أمر طارئ على الطباع البشرية"(١)، على أن هذه المعاناة دليل حسي على إتمام عملية الوحي.

وعلى الرغم من التهيئة الإلهية للنبي ﷺ ليستطيع قبول الوحي، فقد كان يعاني شدة عند نزوله مصداقاً لقوله ﷻ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ "المزمل /٥"، وكانت الشدة تحصل له عند نزول الوحي لثقل القول"(٢).

واتخذت هذه الشدة مظاهر متعددة، منها:

١- **ما يؤدي إلى تغير ملامح وجهه:** فعن عبادة بن الصامت:أن النبيﷺ كان إذا نزل عليه الوحي كرب لذلك وتربد وجهه(٣).

٢- **ومنها ما يؤدي إلى شعوره بشدةٍ في نَفْسِهِ ونَفَسِهِ** حتى يظنه الموت، وهذا يذكر بحديث الغطة في أول الوحي: فعن عبد الله بن عمروﷺ قال: سألت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله! هل تحس بالوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: (نعم أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك فما من مرة يوحى إلي إلا ظننت أن نفسي تفيض)(٤).

---

(١) انظر: فتح بشرح صحيح البخاري ٣٠/١، مرجع سابق.

(٢) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري ٦٨٣/٨، مرجع سابق.

(٣) مسلم ١٣١٦/٣، مرجع سابق.

(٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢٢٢/٢، مرجع سابق، وفيه: حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا قتيبة ثنا بن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن عمرو بن الوليد وقد تقرر في قواعد المصطلح قبول رواية قتيبة عن ابن لهيعة.

٣- ومنها ما يُخرِج ملامح جسده عن تأثير بيئته من حيث ظهور شدة الإجهاد عليه: فعن زيد بن ثابت رضي الله عنه :(كان إذا نزل عليه الوحي ثقل لذلك، وتحدر جبينه عرقاً كأنه جمان، وإن كان في البرد)([1]).

٤- ومنها ما يؤدي إلى ظهوره بمظهر تذلل العبد بياناً لضعفه: فعن عبادة ابن الصامت رضي الله عنه :(كان إذا أنزل عليه الوحي نكس رأسه ونكس أصحابه رؤوسهم، فإذا أقلع عنه رفع رأسه)([2]).

٥- بل يُؤثِّر على ما لامسه ﷺ من بشر أو حيوان: فعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: (كنت أكتب الوحي لرسول الله ﷺ وكان إذا نزل عليه أخذته بُرحاء([3]) شديدة، وعرق عرقاً شديداً مثل الجمان، ثم سري عنه، فكنت أدخل عليه بقطعة الكتف، أو كسرة، فأكتب، وهو يملي علي، فما أفرغ حتى تكاد رجلي تنكسر من ثقل القرآن، وحتى أقول لا أمشي على رجلي أبداً، فإذا فرغت، قال: (اقرأ)، فأقرأه، فإن كان فيه سقط أقامه، ثم أخرج به إلى الناس([4])، وعند البيهقي: (وإن كان ليوحى إليه، وهو على ناقته فيضرب حزامها من ثقل ما يُوحى إليه)([5]).

---

(١) رواه الطبراني، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٧٩٣، مرجع سابق .

(٢) رواه مسلم ٤/ ١٨١٧، مرجع سابق .

([3]) في مختار الصحاح ص١٩، مرجع سابق: "بُرَحاءُ الحمى وغيرها بالضم والمد شدة الأذى تقول منه بَرَّحَ به الأمر تَبْريحاً أي جهده".

([4]) المعجم الأوسط ٢/٥٤٤، مرجع سابق .

(٥) دلائل النبوة ٤/٣، وعند ابن سعد ١٩٧/١، مرجع سابق من مراسيل عكرمة: (كان إذا أوحي إلى رسول الله ﷺ وقد-أي ضعف وسكن- لذلك ساعة كهيئة السكران)، وعنده ١٩٧/١عن أبي أروى الدوسي قال: (رأيت الوحي ينزل على النبي ﷺ وإنه على راحلته فترغو وتفتل يديها، حتى أظن أن ذراعها تنقصم، فربما بركت، وربما قامت موتدة يديها حتى يسرى عنه من ثقل الوحي، وإنه ليتحدر منه مثل الجمان) .

وعن عائشة -رضي الله تعالى عنها-: أن النبي ﷺ كان إذا أوحي إليه وهو على ناقته وضعت جرانها، فلم تستطع أن تتحرك، وتلت قول الله ﷻ ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ "المزمل/٤"([1])، وفي لفظ: أن رسول الله ﷺ كان إذا أوحي إليه وهو على ناقته لا تستطيع أن تتحول حتى سرّي عنه([2]).

٦- **وهذه المظاهر ليست عوارض تأتي مع الوحي القرآني أحياناً، بل هي سمته الدائم، وعادته المستمرة عند نزول الوحي القرآني:** فعن عائشة:(فأخذه ما كان يأخذه من البُرحاء ...)([3])، وهذا دال على الاعتياد.

فإذا أُضيف إلى هذا حقيقة أن الوحي ثقيلٌ على الملائكة يعانون منه وهم الملائكة...وإذا كان ثقل الوحي أمر طبعي بالنسبة للملائكة، وهم من هيأهم الله ﷻ ليكونوا عنده، فكيف بالبشر الموصوفين بالضعف؟، وقد تقدم حديث السلسلة على الصفوان([4])، وفي حديث ابن عباس رضي الله عنه عند ابن مردويه (فلا ينزل على أهل سماء إلا صعقوا)، وعند مسلم عنه عن رجال من الأنصار أنهم كانوا عند النبي ﷺ فرمى بنجم، فاستنار، فقال: (ما كنتم تقولون لهذا إذا رمي به في الجاهلية؟) قالوا: (كنا نقول مات عظيم، أو يولد عظيم . فقال: (إنها لا يرمي بها لموت أحد، ولا لحياته، ولكن ربنا إذا قضى أمراً سبح حملة العرش، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح سماء الدنيا، ثم يقولون لحملة العرش: ماذا قال ربكم؟) الحديث([5]).

([1]) المستدرك على الصحيحين٢/٥٤٩، مرجع سابق، قال الحاكم: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه" . وقال الذهبي في التلخيص: "صحيح" .

([2]) (ابن راهويه) إسحاق بن إبراهيم بن مخلد بن راهويه الحنظلي ت ٢٣٨هـ: مسند إسحاق بن راهويه ٢/ ٢٥٤ مراجعة: عبد الغفور بن عبد الحق البلوشي ١٤١٢هـ -١٩٩١م، مكتبة الإيمان، المدينة المنورة .

([3]) البخاري ٢/٩٤٥، مرجع سابق .

([4]) قال الخطابي: "السلسلة صوت الحديد إذا تحرك وتداحل" كما في فتح الباري ٨/٥٣٣، مرجع سابق، وقد تقدم الكلام على الصلصلة في ص٩٦.

([5]) فتح الباري ٨/٥٣٨، مرجع سابق .

ولثقل الوحي ومعاناة النبي ﷺ دلائل عدة من حيث موضوع البحث:

فأولها: التأكيد على توثيق النص القرآني حال إنزاله، برفع مستوى النبي ﷺ عن المستوى البشري مع بقائه خارج هذه اللحظات على بشريته فهي الأغلب عليه، وهو ما يدعوه إلى تحمل ما يترتب على ذلك، كما أن وجود شدة العَرَق في اليوم الشديد البرد، وثقل الجسد يدل على طاقة جبارة هائلة يبذلها النبيﷺ...وهو ما يؤدي إلى غرس المُلْقَى إليه من القرآن الكريم في فؤاده غرساً، ونقشها في قلبه نقشاً .

ومن المعلوم أنك عندما تضرب شخصاً ضرباً شديداً، أو تضغط بعض أعضائه ضغطاً موجعاً وتقول إثر ذلك كلمة فإنه لا ينساها ...ولذا كان الغت أو الغط في أول الوحي، وبُرحاء الوحي بعد ذلك في مظاهرها المتعددة...وثمة ملحوظة أخرى: هي تنوع مظاهر هذه البُرحاء بين صلصلة جرسٍ ودوي نحلٍ، وثقل جسد لتحقيق هدف النقش بأساليب مفاجئة مختلفة لا تعتادها النفس .وهو ما يعطي آفاقاً كبيرة في الأسلوب التربوي الذي ينبغي أن يُتَبع في حياتنا التعليمية .

وثانيها: وجود العلامة الحسية المشعرة للنبي ﷺ بنزول الوحي، وهو ما يدفع تطرق التوهم إليه فيطمئن قلبه –بعد– إذا استيقن، ويدفع تطرق التوهم إلى غيره، فيعلمون سبل الاتصال الرسول المَلَك والرسول البشر، فيغدو ما يستنكرونه من هذا الاتصال كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف .

وثالثها: أن العلامة الحسية على الرغم من شدتها إلا أنها غير مشاهدة لغيره، ولا محسوسة من أحد سواه ممن حوله، إنما يشاهدون أعراضها في جسده مما لا يدخل تحت نطاق القدرة البشرية([1])، فلا وجه لنفي قراءة جبريلعليه السلام ما أنزله حرفاً حرفاً حال إنزال الوحي القرآني على قلبه، فعدم الشعور بذلك **داخلٌ في أن أمر الوحي برمته غير محسوس أو غير معلوم لمن حوله، بصفة دقيقة إلا ما يرونه من علامات ظاهرية صارت قرائن على وجود الوحي .**

([1]) أي أنهم اعتادوا ذلك من بعد مما يرونه من تأثر يظهر عليه على هيئة معينة...سموها (بُرحاء الوحي) .

وفي عصرنا يمكن للإنسان أن يسمع إنساناً، ويرى آخر عن طريق الهاتف المرئي دون أن يشترك معه غيره من المحيطين به في زمان التكلم والرؤية إذا توافر الجهاز المرسِل عند من يتكلم، والمستقبِل عند من يسمع ...وهكذا نقرر بأن الله -تعالى ذكره- قد هيأ القدرة لجبريل عليه السلام للاتصال برسوله ﷺ ، وهيأ الرسول ﷺ بمستقبلات لما يُوحى إليه تدرك آثارها، ولا ترى حقيقتها وكيفيتها .

ورابعها: أن المقتضى المنهجي لهذه الشدة التي يعانيها الرسول ﷺ عند إنزال الوحي القرآني: أن يستشعر ذلك من يَحْفَظُ ألفاظ القرآن، ويُحَفِّظُها، ولا يتعامل مع لفظ القرآن بتساهلٍ يذهب بركة القرآن... .

فإن اعتُرض بأنه: قد ورد ما يدل على يسر الوحي، وسهولة تأتيه ففي رواية الطبراني لحديث الحارث بن هشام: (ويأتيني أحيانا في صورة رجل يكلمني كلاماً، وهو أهون علي)الحديث([1]) فهذا يدل على أن ثم هيناً في الوحي وأهون منه، **فالجواب:** يوضح أمر هذه الرواية الروايات الأخرى، وذلك أولى من العكس، لطبيعة الشدة المصاحبة للوحي بالنسبة لمن وصفوا بأنهم عند الله ﷻ فضلاً عمن سواهم...فقد أراد بقوله: (أهونه)، الأمر النسبي أي بالنسبة إلى الهيئة الأخرى من الوحي، قال ابن حجر -رحمه الله تعالى-: "يفهم منه أن الوحي كله شديد، ولكن هذه الصفة أشدها"([2]) .

ولذا فإن الهيئة الأخرى -وهو المجيء في صورة رجل- ليست خاصة بالأنبياء بل يشترك فيها غيرهم، وقد كلمت الملائكة مريم بنت عمران، وليست بنبية عند الجمهور([3])، كما كلم المَلَك هاجر أم إسماعيل: فقد قال ابن عباس رضي الله عنه : (فإذا هي بالمَلَك عند موضع زمزم فبحث بعقبه -أو قال- بجناحه حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه، وتقول

([1]) المعجم الكبير ١/ ٣٤٥، مرجع سابق .

([2]) فتح الباري ٥٦٧/٨، مرجع سابق .

([3]) انظر: تفسير القرطبي ٤١/٤، مرجع سابق .

بيدها هكذا...فقال لها الملَك: لا تخافوا الضيعة؛ فإن هاهنا بيت الله، يبني هـــذا الغـــلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله...)([1]) .

وهل يتنافى هذا مع كون القرآن ميسراً للذكر كما في قوله ﷻ ﴿وَلَقَـــدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ "القمر/١٧"؟ لا؛ لوجوه:

أولها: أن الحديث آتٍ عن كيفية إيصاله من الملأ الأعلى إلى الأرض لا ما بعـــد ذلك، إذ قد يقال يُسر عند انتقاله من بشر إلى بشر، على أن التيسير المذكـــور في الآيـــة ينصرف إلى المعنى قبل اللفظ، بدليل ذكر علة التيسير (للذكر) .

وثانيها: قد يُنازع في الأول، فالثاني واضح وهو: أن أعظم الكلام قد صيغ بأيسـر الأساليب المفهومة، وإذا قورن بما ورد في معلقة امرئ القيس عُلِمَ مقدار تيسيره، مع أنه لا يستطاع مثله فذا وجه ثانٍ في توجيه الآية .

وثالثها: أن ما ذكر من المقتضى المنهجي قد صُرِّح فيه أن مراده استشعار ثقـــل القول، لا أنه عند حفظه ثقيل، ويدل له أنه لا يعرف كتاب سماوي، ولا أرضـــي تيســـر حفظه كالقرآن، بل المقارنة هنا لا تتم لشدة البون بين المقارن بينهما([2])، وهو قولـــه ﷻ ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ "الدخان/٥٨" .

على أنه ينبغي تقرير أن وصف الله ﷻ لكلامه بأنه (قول ثقيل) مع أنـــه كلام، وكلامه -تعالى ذكره، وجلَّ عن التشبيه والتمثيل-عندما ييسره للمخلـــوق لينقله بلسانه مع أن المعروف أنه يكون عبارة عن اهتزازات هوائية فلا يكـــون قولاً ثقيلاً إلا لأنه قول آخر غير قول البشر، ويُلْقى بطريقة خاصة حتـــى تكـــاد فخذ النبي ﷺ أن تَرُضَّ رِجْلَ كاتب الوحي، وتضع الناقة له جرانها، ويتفصد له جبين الرسول ﷺ عرقاً، فالثقل المراد قد يكون في العملية التلقينية الأولى بيـــن

([1]) صحيح البخاري ١٢٢٧/٣، مرجع سابق، وقد صرح برفعه في أثناء الحديث .

([2]) وانظر في معنى الآية: روح المعاني ١٢٩/٢٧، مرجع سابق، والتحرير والتنوير ١٧٩/٢٧، مرجع سابق .

جبريل عليه السلام والنبي ﷺ ،ثم يكون ميسراً بعد ذلك على الألسنة، وقد يكون الثقل هو في القيام به، وتطبيق معناه، وقد يكون الثقل بالنظر إلى أنه كلام الجبار العظيم ﷻ كيف يطيق المخلوق حمله، أو فهمه...لا شك أن حدوث ذلك يدل على تيسير عظيم...مع أن عظمة كلام الله ﷻ تجعله ثقيلاً على المخلوق...لكن الله ﷻ يسره، وبهذا يُجمع بين آية المزمل وغيرها كآية الدخان، وآية القمر.

٣-**التكلف الطَبَعي في حفظ الوحي**: والبند السابق كان يتكلم عن التكلف غير الطبعي، وهنا الإشارة إلى التكلف الطبعي الذي كان في ابتداء الوحي، وقد وصفه ابن عباس رضي الله عنه بقوله: كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة، وكان مما يحرك به لسانه، وكان ذلك يعرف منه...الحديث([1]).

فقوله (كان مما يحرك به لسانه) أي كان كثيراً يفعل ذلك، وكرر (كان) لطول الكلام، (يعالج) المعالجة المحاولة للشيء، والمشقة في تحصيله، وكان ذلك يعرف منه، أي يعرفه من رآه لما يظهر على وجهه وبدنه من أثره([2]) .

٤-**تلقي الوحي القرآني تلقي استماع لصوت متكلم بأحرف**: إذ الوحي القرآني ليس إلقاء محضاً فجائياً في النفس (كالإلهام)، بل حركة وصوت مقطع حرفاً حرفاً متتابع على هيئة التعليم، ويدل له صريحاً قوله ﷻ: ﴿**لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ**﴾ "القيامة/١٦"﴿**وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ**﴾ "طه/١١٤"﴿**عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى**﴾ "النجم/٥"، وفي لفظ للبيهقي لحديث الحارث ابن هشام (فيعلمني)([3])، وهي تطبيق واقعي لحقيقة﴿**عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى**﴾"النجم/٥"، ويدل لها قوله في الرواية المشهورة (فيكلمني) وعند أحمد (فيخبرني)([1])، ولذا كان النبي

([1]) يأتي تفصيله إن شاء الله في المبحث الخامس من هذا الفصل .

([2])انظر: (السيوطي) أبوالفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (٨٤٩ - ٩١١ هـ): الديباج على صحيح مسلم ١٥٨/٢ مراجعة: أبو إسحاق الحويني الأثري، دار ابن عفان - الخبر- السعودية .

([3]) وقال ابن حجر في فتح الباري ١/ ١٨، مرجع سابق: "هي تصحيف"، مع أنها لا تستبعد كما هو واضح .

ﷺ يحرك شفتيه عند تلقي الوحي القرآني، وما ذاك إلا لمتابعة الحرف الحرف([1])، كما يدل له:حديث ابن عباسرضي الله عنه في قصة عثمان بن مظعون، وفيه: (إذ شخص رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء، فنظر ساعة إلى السماء، فأخذ يضع بصره، حتى وضعه على يمينه في الأرض، فتحرف رسول الله ﷺ عن جليسه عثمان إلى حيث وضع بصره، وأخذ ينفض رأسه كأنه يستفقه ما يقال له..)([2])، وفي حديث المعالجة ([3])، وحديث المعارضة ([4]) من البحث ما يزيد ذا الكلام تفصيلاً .

٥-جمع القرآن في صدره ﷺ :إذ الوحي القرآني كله إنزال على القلب، ولما في قوله تعالى ﴿**إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ**﴾ "القيامة/١٧" ويرتبط بهذه الحقيقة مفهومان:

الأول: أن ذلك لا ينافي أن تعليم جبريلعليه السلام هو إقراء لكلمات من حروف متتابعة، وتقدم في البند السابق .

الثاني: أنه لم ينزل من القرآن الكريم شيء فيلقيه إليه المَلَك وهو على صورة الرجل على مجيئه الأسهل([5])، بل جاء على الصورة الأشد، وهذه حقيقة لم تُعَر كبير اهتمام لتقريرها، ولا في تقريرها، لعل ذلك لأنها بدهية قرآنية، ومن أدلتها:

١- ﴿**قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ**﴾ "البقرة/٩٧"، فهذا عام في كل أنواع الموحَى به من قرآن وغيره، وإن كان جل المفسرين يذهب إلى أن الضمير يعود على القرآن الكريم عود شهرة لا تستدعي سبق الذكر، ولكن قوله تعالى ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٤)عَلَى قَلْبِكَ...**﴾ "الشعراء/١٩٤-١٩٥" -وهو خاص بالقرآن

([1]) وانظر الدلالة الثالثة من بند المعاناة في المبحث الخامس، من هذا الفصل .

([2]) سبق تخريجه في المبحث الأول من الفصل الثالث .

([3]) انظر: المبحث السادس من هذا الفصل .

([4]) انظر: المبحث التاسع من هذا الفصل .

([5]) وصرح صاحب التحرير والتنوير ١٩ /١٨٩، مرجع سابق أن حديث الحارث خاص بوحي القرآن .

الكريم- قد أظهر معنى الضمير الوارد في سورة البقرة، فإن نوزع في ذلك فحسبه أن يكون دليلاً مستقلاً .

٢-حديث التفلت الآتي ذكره بعد قليل([1])؛ إذ قد ضمن الله ﷻ جمعه في فؤاده .

٣- ما ذكر لنا من حوادث إنزال القرآن كلها تخدم هذه الحقيقة، ومنها ما ذكره زيد بن ثابت رضي الله عنه في كتبه للقرآن([2])، إذ وصفه يدل على العادة المستمرة .

فلتنضم هذه الحقيقة الجليلة إلى حقائق تلقي النبي ﷺ القرآن من جبريل عليه السلام فتعطي بعداً أعظم لمن عمي بصره عن حقائق تلقي القرآن، فزعم دخول الاجتهاد البشري المحض فيه، ولتثبت أن حفظ القرآن هو الحفظ الكامل الذي لا يطرقه شك في تفلت أو نقصان؛ إذ مجيء جبريل عليه السلام كان على غير الهيئة المعتادة للبشر.

وثم حقيقة موازية تلوح في هذا الباب، وهي: أن هذا المجيء بهذه الشدة لا يستطيعه الجن في التسلط على بني آدم، إذ مَبْلَغ فعل الشيطان الإغواء والوسوسة والإغراء، والتلبس على قول من يثبته، أما هذه الشدة التي يسمعها رسول الله ﷺ فلا سبيل للشيطان لإحداثها .

فإن اعتُرض بأن: ظاهر آية سورة البقرة أن جبريل عليه السلام ألقى القرآن في قلب النبي ﷺ من غير سماع قراءة كما هو كذلك في سورة الشعراء﴿**عَلَى قَلْبِكَ**﴾ .

فالجواب: قد بُيِّن في مواضع أُخَر أن معنى ذلك أن المَلَك، يقرؤه عليه حتى يسمعه منه فتصل ألفاظه ومعانيه إلى قلبه بعد سماعه، وذلك هو معنى (نزوله على قلبه)، ويُلاحظ أنه لم يقل (في قلبه) -كما سبق في المبحث الثاني- وذلك كما في قوله ﷻ ﴿**لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ ... بَيَانَهُ**﴾ "القيامة/١٦..."، وقوله﴿**وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا**﴾ "طه/١١٤" .

([1])انظر: ص١٠٧ .

([2]) انظر: ص٩٩.

وليس المراد من النـــزول على القلب ما استدل به قوم راموا أمراً ما هم ببالغيـــه، فادعوا أن القرآن إلهامٌ وقذفُ روحاني بدليل الآيتين المذكورتين؛ **إذ العرب تســـتعمل النـــزول على القلب**، وتكليم القلب، وتكليم الصدر، وحفظ الصدر...ونحو ذلـــك في الحفظ والضبط والوعي والفهم لا في نفي السماع، كما قال أبو ذرﷺ :(ما تـــرك رسول الله ﷺ شيئاً مما صبه جبريل وميكائيل عليهما السلام في صدره، إلا قد صبـــه في صدري، وما تركت شيئاً مما صبه في صدري، إلا قد صببته في صـــــدر مـــالك بـــن ضمرة)([1]) .

ولعل من أعظم أسرار قوله تعالى ﴿**عَلَى قَلْبِكَ**﴾غير ما تقدم، أن القرآن الكريم لا ينساه النبي ﷺ نسياناً كلياً كما روى ابن سعد من طريق أبي سلمة الماجشون أنه بلغـــه أن رسول الله ﷺ كان يقول: (كان الوحي يأتيني على نحوين: يأتيني به جبريل فيلقيه علي كما يلقى الرجل على الرجل فذلك ينفلت مني، ويأتيني في شيء مثل صوت الجرس حتى يخالط قلبي فذاك الذي لا يتفلت مني) وقال ابن حجر-رحمه الله تعالى-: "وهذا مرسل مع ثقة رجاله، فإن صح فهو محمول على ما كان قبل نـــزول قولـــهﷻ ﴿**لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ**﴾، فإن المَلَك قد تمثل رجلاً في صور كثيرة، ولم ينفلت منه مـــا أتاه به، كما في قصة مجيئه في صورة دحية، وفي صورة أعرابي، وغير ذلك، وكلـــها في الصحيح"([2]) .

وباعتبار أن الوحي القرآني كان شديداً، والنوم راحة لا شدة فيه، يُطْرَحُ ســـؤال على ميدان البحث:

هل أوحي إلى النبي ﷺ شيء من القرآن مناماً؟ والجواب: أن الظاهر من الســـمات العامة التي تقدمت أن ذلك لم يحدث، لما يتطلبه الوحي القرآني من استعداد وشدة .

([1]) المعجم الكبير١٤٩/٢، مرجع سابق .

([2]) فتح الباري ١٩/١، مرجع سابق .

فإن اعتُرض بأن: سورة الكوثر نزلت مناماً كما رواه أنسﷺ قال: (بينا رسول اللهﷺ ذات يوم بين أظهرنا - إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه متبسماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله ؟ ! قال: (أنزلت علي آنفاً سورة فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**(١) **فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ**(٢) **إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ**﴾ "الكوثر/١-٣") الحديث (١)، إذ ظاهره أن سورة الكوثر نزلت مناماً ؟.

فالجواب: ذكر العلماء عدداً من الأجوبة، ولكن الآلوسي -رحمه الله تعالى- ارتضى: أن معنى أغفى في الحديث منصرف إلى ظن بعض الرواة أن ذلك حدث له، وليس كذلك في واقع الأمر، وإنما اعترته برحاء الوحي حتى توهم بعض من حوله أنه أغفى فقال: "وقد يُظَن أنهﷺ أغفى، ولا يحتاج من قال إن الأشبه أن القرآن كله نزل في اليقظة إلى تأويل هذا الخبر بأنهﷺ خطر له في تلك الإغفاءة سورة الكوثر التي نزلت قبلها في اليقظة، أو عرض عليه الكوثر الذي أنزلت فيه ،سورة فقرأها عليهم، ثم إنه على ما قيل أن بعض القرآن نزل عليه ﷺ وهو نائم استدلالاً بهذا الخبر، يبقى ما قلناه من سماعه ﷺ ما ينزل إليه، ووعيه إياه بقوى إلهية قدسية ونومهﷺ لا يمنع من ذلك، كيف وقد صح عنه أنه قال (تنامعيني ولاينامقلبي)"(٢) .

وهذا الذي مال إليه **الآلوسي**، هو ما ذهب إليه **الرافعي**(٣) ، حيث نقل عنه **السيوطي** قوله: "والأولى أن تفسر الإغفاءة بالحالة التي كانت تعتريه عند الوحي، ويقال لها بُرَحاء الوحي؛ فإنه كان يؤخذ عن الدنيا، والأشبه أنه لم ينزل شيء من القرآن في النوم"(٤)، ومال إليه **السندي** في حاشيته على سنن النسائي فقال: "(إذ أغفى) الإغفاء

---

(١) صحيح مسلم ١/٣٠٠، مرجع سابق .

(٢)روح المعاني/١٨٢، مرجع سابق، والحديث المذكور أخرجه البخاري ١/ ٣٨٥، مرجع سابق .

(٣) كبير فقهاء الشافعية المناظر للإمام النووي ...وليس الأستاذ مصطفى صادق الرافعي أديب العصر .

(٤) الديباج على صحيح مسلم ٢/١٣٢، مرجع سابق .

بالغين المعجمة-: النوم القليل، وفي المجمع: الإغفاء السِنَة، وهي حالة الوحي غالباً، ويحتمل أن يريد به الإعراض عما كان فيه"([1])، وقال **ابن خلدون**: "أن توجد لهم-أي الأنبياء- في حال الوحي غيبة عن الحاضرين معهم مع غطيط، كأنها غشيٌ، أو إغماءٌ في رأي العين، وليست منهما في شيء، وإنما هي في الحقيقة استغراق في لقاء الملك الروحاني، بإدراكهم المناسب لهم الخارج عن مدارك البشر بالكلية، ثم يتنزل إلى المدارك البشرية، إما بسماع دوي من الكلام، فيتفهمه، أو يتمثل له صورة شخص يخاطبه، بما جاء به من عند الله ثم تنجلي عنه تلك الحال وقد وعى ما ألقى إليه"([2]).

ويكفي في الرد على هذا الوجهة قول الله ﷻ **﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾** "النجم/٥"؛ إذ التعليم منافٍ للنوم إن أُريد بالنوم ما يعتاد البشر، لا إن أُريد به نوم الأنبياء .

كما يظهر للباحث أن ما ذُكِرَ في الحديث من نزول سورة الكوثر ليس بنزول حقيقي لاتفاق أهل التفسير ومتتبعي النزول أن هذه السورة مكية، وسياقها مثبتٌ لمكيتها، وكلام أنس ﷺ مشعر بوجوده حال الحديث وهو مدنيٌ كما هو معلوم، وقد قال البيهقي:"والمشهور فيما بين أهل التفسير والمغازي أن هذه السورة مكية"([3])، وما ذكره الآلوسي يصلح وجهاً عند التنزل للرد على نفي المعاناة في المنام من حيث أن قلب النبي ﷺ لا ينام .

وإذ انتهت هذه المسألة؛ **فهل معنى ما قرر هنا أن الوحي غير القرآني لم يكن يأت النبي ﷺ على الصورة الأشد** ؟ والجواب: لا! إذ لا يعني ما قرر هاهنا، أن الوحي غير القرآني لم يكن يأتيه بالصورة الشديدة، بل قد يأتيه كذلك كما في حديث عبادة ابن

([1]) (السندي) أبو الحسن نور الدين بن عبد الهادي ت ١١٣٨هـ: حاشية السندي على النسائي ١٣٤/٢، مراجعة: عبد الفتاح أبو غدة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، مكتبة المطبوعات الإسلامية - حلب .

([2]) مقدمة ابن خلدون ص٩٢، مرجع سابق .

([3]) سنن البيهقي الكبرى ٤٣/٢، مرجع سابق .

الصامت رضي الله عنه أنه قال: (كان رسول الله ﷺ إذا نزل الوحي عليه كرب لذلك، وتربد وجهه، فأُوحي إليه ذات يوم، فلقي ذلك، فلما سرى عنه، قال رسول الله ﷺ :(خذوا عني . قد جعل الله لهن سبيلاً، الثيب بالثيب والبكر بالبكر، الثيب جلد مائة ثم رجماً بالحجارة، والبكر بالبكر جلد مائة، ثم نفي سنة)([1]). وهو دال على مجيء الوحي غير القرآني بالصورة الأشد .

إنما المراد من البحث السابق نفي أن يأتيه الوحي القرآني بصورة نبذ الرجل، وإلقاء الفتق، ولذا تكاد لا ترى حديثاً فيه ذكر لوحي قرآني إلا وصفة إنزاله هي الشديدة إن ذُكِرت، حتى صار ذلك سيماء الوحي القرآني التي يذكرها كتابه عند وصفه، كما في حديث زيد ابن ثابت رضي الله عنه المتقدم.

٦- **ارتقاء القوى البشرية للنبي ﷺ** :لتسد كل ثغرة ضعف فيها عند التلقي حتى وقت الإبلاغ، كما قال تعالى ﴿**إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ**﴾ "القيامة/١٧" ﴿**سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى**﴾ "الأعلى/٦"، وقد قال ابن حجر -رحمه الله تعالى- في قوله تعالى ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾ "العلق/١": "أي لا تقرؤه بقوتك، ولا بمعرفتك، لكن بحول ربك وإعانته"([2]) .

٧- **الاستماع والإنصات:** وهذا متجلٍ في الأمر العام﴿**وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ "الأعراف/٢٠٤"، فإن نوزع فيه فالأمر الخاص﴿**فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ**﴾ "القيامة/١٨"، أي: فاستمع له وأنصت: كما في تفسير ابن عباس رضي الله عنه ([3])، ويجعله نصاً في هذه المسألة نهيه عن تحريك لسانه .

والفرق بين الاستماع والإنصات: أن الاستماع أخص من الإنصات؛ لأن الاستماع الإصغاء، والإنصات السكوت، ولا يلزم من السكوت الإصغاء([4]) .

([1]) صحيح مسلم ١٣١٦/٣، مرجع سابق .

([2]) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٣٥/١، مرجع سابق .

([3]) انظر: حديث المعالجة المبحث السادس من هذا الفصل .

([4]) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٦٨٣/٨، مرجع سابق، ومثله: الديباج على صحيح مسلم ١٥٨/٢، مرجع سابق .

٨- **الوعي لما يقوله الملَك:** وذا أمر قد تكفل الله به﴿ **إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ**﴾ "القيامة/١٧" ﴿**سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَى**﴾ "الأعلى/٦"، وسيأتي تحليل هذين الموقفين القرآنيين -إن شاء الله تعالى-([1])، وحدد النبي ﷺ إسقاطه الواقعي في قوله: (فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال).

وقوله: (فيفصم) يضرب أي فيقطع عني حامل الوحي "يقلع، وأصل الفصم القطع"([2])(وقد وعيت عنه) أي حفظت عنه أي أجده في قلبي مكشوفاً مُتَبَيَّناً بلا التباس، ولا إشكال([3]) .

٩- **تطبيق هيئات التلقي التوقيفية:** وهذا ينبني على توقيفية هيئات التحمل، ويأتي ذلك في تحليل حديث المعالجة([4])، ومن الملاحظات التي تقال هاهنا أن سورة القيامة من أول ما نزل في مكة، وذاك دالٌ على التربية المبكرة على الطرق الصحيحة لتحمل القرآن الكريم .

ويرد بسط مفهوم التلقي والتلقين عقب حديث المعالجة([5]) .

١٠-**استعداد الملكات النفسية في النبي ﷺ للحفظ:** حيث اقترن تلقي النبي ﷺ بكمال الرغبة في الحفظ وحب المحفوظ، ففي رواية الطبري عن الشعبي: (عجل يتكلم من حبه إياه)، ولا تنافي بين محبته إياه والشدة التي تلحقه في ذلك، فأُمِرَ بأن ينصت حتى

([1]) انظر: حديث المعالجة المبحث السادس من هذا الفصل، وآية الأعلى في الفصل الخامس -المبحث الثاني .

([2]) (السيوطي) أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، ت٩١١هـ : تنوير الحوالك شرح موطأ مالك ص١٦٠، ١٣٨٩-١٩٦٩م المكتبة التجارية الكبرى - مصر .

([3]) حاشية السندي على النسائي ١٥٠/٢، مرجع سابق .

([4]) انظر : حديث المعالجة في المبحث السادس من هذا الفصل .

([5]) انظر: في المبحث السابع من هذا الفصل .

يقضي الله ﷻ وحيه، ووعد بأنه آمن من تفلته منه بالنسيان أو غيره، ونحوه قوله ﷻ ﴿وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ "طه/١١٤" أي بالقراءة(١).

وعدم التنافي بين الحب والخوف لأن الحب ولد الخوف فكان ما هو معلوم(٢).

والمقتضى المنهجي لذلك: غرس الإجلال لحفظ القرآن في نفس المتقدم لحفظه من حيث شرف الحفظ، ومن حيث رهبة ادعاء الانتساب إلى زمرة الحفاظ إن لم يكن قائماً بالقرآن تقويماً لألفاظه، وقياماً بأحكامه، وتمثلاً لأخلاقه...(٣) .

ومازال حادي الشوق يأرز إلى الحرم المطهر والمسجد النبوي حيث آثار جبريل عليه السلام والنبي ﷺ...إذ ثم كان مركز تَعَلُّم ألفاظ القرآن الكريم من أمين الوحي في السماء عليه السلام لأمين الوحي في الأرض ﷺ...

ما لمطايانا تميل مالها؟.....أظن رملَ رامة بدا لها(٤)

لا تحسبنَّ ميلها من ملل.....وإنما سكرُ الهوى أمالها

تجدُّ وجداً في الخُزون كلما.....تذكرت من يثرب أطلالها(٥)

وإن حدا الحادي بذكر طيبةٍ.....هيج ذكر طيبةٍ بَلبالها(٦)

فشوقُها يدفعُها حتى ترى.....آماَلها هناك، أو آجالها

---

(١)انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٤٤/١، مرجع سابق، وانظر: تفسير القرطبي ١٠٦/١٩، مرجع سابق .

(٢) تفسير الطبري١٨٧/٢٩، مرجع سابق، وانظر: روح المعاني ٢٤٣/٢٩، مرجع سابق .

(٣)إذ يُلاحَظ تساهلٌ بالغٌ في حفظ القرآن من قبل المتقدِّم له...فلا هيبة له، ولا إجلال يعتريه... لكأنما يشربه شربَ الماء، غيرَ مصطحبٍ معه في مسيرة حفظه حباً أو خوفاً .

(٤)رامة: موضع في البادية، وأراد به التكنية عن البلد التي هواها فؤاده، كما هوَى القلوب...وصَرَّحَ بأنها طيبة –بعد–.

(٥)الخُزون: جمع حزْن، وهي ما غلظ من الأرض...يكني عن مشقة السفر .

(٦)البَلْبال: شدَّة الهم والوَسْواس في الصدور وحديث النفس، فأما البِلْبال، بالكسر، فمصدر انظر: لسان العرب ١١/ ٦٩ .

المبحث السادس:
حديث المعالجة ودلالاته العامة:

يبسط هذا المبحث حديث المعالجة المشهور في تلقي النبيﷺ ألفاظ القرآن الكريم من جبريل عليه السلام، حيث ظهر فيه اجتهاد النبي ﷺ في هذا التلقي قبل نزول التوقيف الإلهي، والتزامه بمفردات التوقيف الإلهي بعد ذلك...وقد دل هذا الحديث على دلالات هامة في مسألة تلقي القرآن من جبريل عليه السلام، ولذا فإن هذا المبحث سينقسم إلى خمسة مطالب:

المطلب الأول: متن حديث المعالجة برواياته المختلفة .

المطلب الثاني: تحليل الموقف في حديث المعالجة .

المطلب الثالث: تحليل آيات سورة القيامة الواردة في حديث المعالجة .

المطلب الرابع: من فوائد حديث المعالجة .

المطلب الخامس: من الدلالات الخاصة لحديث المعالجة .

المطلب الأول: متن حديث المعالجة برواياته المختلفة:

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى ﴿**لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ**﴾ قال: كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة [وفي المعجم الكبير: إذا نزل عليه القرآن تلقاه بلسانه وشفتيه] وكان مما يحرك به [لسانه و]شفتيه [وفي السنن الكبرى للنسائي مخافة أن يفلت منه] [فيشتد عليه وكان يعرف منه] فقال ابن عباس رضي الله عنهما :فأنا أحركهما لكم كما كان رسول الله ﷺ يحركهما، وقال سعيد: أنا أحركهما كما رأيت ابن عباس رضي الله عنهما يحركهما، فحرك شفتيه، فأنزل الله تعالى﴿ **لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ** ﴾ قال: جمعه له في صدرك وتقرأه، ﴿ **فإذا قرأناه فاتبع قرآنه**﴾، قال: فاستمع له وأنصت، ﴿**ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ**﴾ ثم إن علينا أن تقرأه، فكان رسول اللهﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل عليه السلام استمع [وأطرق]، فإذا انطلق جبريل عليه السلام قرأه النبي ﷺ كما قرأه

[كما وعده الله](١)، وفي لفظ للبخاري: كان النبيﷺ إذا نزل عليه الوحي حرك به لسانه -ووصف سفيان يريد أن يحفظه- فأنزل الله﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾، وفي لفظ له: فقيل له ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ يخشى أن ينفلت منه ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ أن نجمعه في صدرك، وقرآنه أن تقرأه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾ يقول أنزل عليه ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ أن نبينه على لسانك، وفي السنن الكبرى للنسائي: إذا نزل القرآن عليه يعجل بقراءتها ليحفظه(٢)، وفي لفظ: كان يعالج من ذلك شدة فأنزل اللهﷻ ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ يقول: لتعجل بأخذه، يقول:﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ يقول: جمعه أن نجمعه في صدرك، وأن تقرأه،﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾ فإذا أنزلناه، ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ يقول: فاستمع وأنصت، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾: أن نبينه بلسانك فاستراح رسول الله ﷺ(٣).

المطلب الثاني: تحليل الموقف في حديث المعالجة:

سبب المعاناة: كان النبي ﷺ يعاني عند إنزال القرآن عليه، وتلقيه له من صوت المَلَك من مشكلة استيعاب قواه البشرية للفظه؛ إذ يخاف من ضعفها مع عظم المُنْزل، فيتعجل أخذه من المَلَك متلقياً إياه بلسانه وشفتيه(٤)، لا لصعوبة حفظه؛ إذ هو من قوم اشتهروا بالحافظة المدهشة حتى أقاموها مقام الكتابة، **وإنما كان سبب المعاناة متمثلاً فيما يلي:**

---

(١) صحيح البخاري ٦/١، مرجع سابق، والزيادات غير المعزوة هي للبخاري من طرق أخرى.

(٢) وغوه في: (الحميدي) أبو بكر عبد الله بن الزبير ت٢١٩هـ: مسند الحميدي، مراجعة: حبيب الرحمن الأعظمي، ١٣٨١هـ، دار الكتب العلمية -بيروت.

(٣) المعجم الكبير ٤٥٨/١١، مرجع سابق.

(٤) وفيه دليل على وجوب حفظ القرآن على النبي ﷺ إذ لو كان يريد حفظ المعنى لما احتاج لبذل هذا الجهد، كما أن فيه دليلاً على أن القرآن ليس بإلهام.

١) **علمه أنه قد كُلِّفَ في حدود** ما تطيقه قواه البشرية؛ إذ تلك من أساسات الشريعة، وتحديد مقدار هذه الطاقة عائدٌ إلى مراقبة العبد لربه الذي يعلم السر وأخفى، ولذا فالنبي ﷺ يستنفر -عند نزول الوحي عليه- جميع قواه خوفاً من التقصير، وهذا واضح عند تحليل النص للوهلة الأولى .

٢) **إشفاقه من أن يعتريه القصور البشري**، فينفلت بعض القرآن منه، خاصة أنه لا يعلم الغيب ﷺ، ولا يدري كمية المنزل من حيث القلة والكثرة .

٣) **حبه للقرآن الكريم**، ولا تنافي بينه وبين السابق إذ الحب مولد الإشفاق .

فنُهِيَ النبي ﷺ عن اتباع أساليبه الخاصة في تلقي القرآن وحفظه من العجلة بأخذه، وتحريك اللسان لأجل ذلك في موضعين من القرآن الكريم، هما موضعا طه والقيامة، وأُخبر أن هيئة تلقي القرآن توقيف، وليست اجتهاداً، وبُيِّن له الأساليب التي يتلقى بها القرآن، **وَوُعِدَ بثلاثة أمور (من حيث اللفظ** حيث أُمِرَ بذلك، وضُمِنَ له تحقيقه): **جمعه** في صدره (حفظ أصل اللفظ)، **وقراءته** بعد ذهاب المَلَك **كما قرأه** عليه المَلَك(أداء اللفظ بالهيئة التجويدية والأدائية ذاتها) ، **وتبيينه بلسانه** أي أداؤه كما أنزل إليه([1])، فقد نُهي النبي ﷺ عن اتباع أساليبه الاجتهادية في تلقي الوحي القرآني وتعلمه، والموضعان اللذان فيهما النهي:

أحدهما: قوله ﷻ ﴿**وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ**﴾"طه/١١٤"، **والآخر**: ﴿**لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ** ...﴾ "القيامة/١٦-١٨".

فأما الأول: وهو قوله ﷻ: ﴿...**وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ** ...﴾ "طه/١١٤"، فقد قرر المفسرون أنه يجوز أن يكون معنى العجلة بالقرآن العجلة بقراءته حال إلقاء جبريل عليه السلام آياته، فعن ابن عباس رضي الله عنهما :كان النبي ﷺ يبادر جبريل عليه السلام فيقرأ قبل

([1]) وتفصيل ذلك يأتي في المطلب الثالث من هذا المبحث: تحليل آيات سورة القيامة .

أن يفرغ جبريل عليه السلام حرصاً على الحفظ وخشية من النسيان، فأنزل الله سبحانه وتعالى ﴿...**وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ...**﴾ "طه/١١٤"، فيكون المراد بقضاء وحيه: إتمامه وانتهاؤه، أي انتهاء المقدار الذي هو بصدد النـــزول"([1]) .

وأما الثاني فهو في سورة القيامة:﴿ **لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ(١٦)إِنَّ عَلَيْنَـا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ(١٧)فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ(١٨)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ**﴾ "القيامة/١٦-١٩" .

المطلب الثالث: تحليل آيات سورة القيامة الورادة في حديث المعالجة:

- **﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَه﴾:**

ورد فيها معنيان([2]):

١- **علينا أن نجمعه في صدرك:** وهو عن ابن عباس رضي الله عنهما وهو في الصحيح كما في مـــتن الحديث، وعن قتادة تفسيره بالحفظ([3])...وهما تعبيران آيلان إلى معنى واحد .

٢- **الجمع هو التأليف:** وهو ما رواه الطبري عن قتادة([4])، ورواه البخاري معلقاً عـــن ابن عباس رضي الله عنهما فقال: قوله سبحانه وتعالى ﴿**إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ**﴾: تأليف بعضه إلى بعض([5]).

وكلا المعنيين يكونان **حقيقة الجمع**، وهي: جمعه في الصدر محفوظاً كمـــا أنزلـــه الله عز وجل بلفظه ونظمه وتأليفه... ولئن كان تأليفه (ترتيب الآيات للاختـــلاف في ترتيـــب السور) من الله، فلأن تكون أوجه الأداء منه سبحانه وتعالى أولى .

([1]) انظر: التحرير والتنوير ٣١٧/١٩، مرجع سابق، ونحوه في تفسير الجلالين وحاشية الصاوي عليهما ٨٠/٣، مرجـــع سابق، وكذا في تفسير ابن كثير ٣ /٤٩٥، مرجع سابق .

([2]) وأورد الآلوسي في روح المعاني ٢٤٤/٢٩، مرجع سابق: قولين آخرين في معنى جمعـــه وقرآنـــه وضعفـــهما، ولا يستحقان الاشتغال بهما .

([3]) انظر: فتح الباري ٦٣٧/٨، مرجع سابق .

([4]) تفسير الطبري ١٨٨/٢٩، مرجع سابق .

([5]) صحيح البخاري ١٧٧٠/٤، مرجع سابق .

• **﴿وَقُرْءَانَهُ﴾**: وقع في رواية الطبري في معناها: وتقرأه بعد، أي: قراءتك إيـله، أي جريانه على لسانك، فقرآنه مصدر مضاف إلى المفعول([1]) .

• **﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾**: ورد في هذه الآية أربعة معانٍ عن ابن عباسﷺ([2]):

الأول: أي قرأه عليك الملك، وهو مما ورد في متن الحديث .

والثاني: رواه عنه البخاري:**﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾**: فإذا جمعناه وألفنـــاه، **﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾** أي ما جمع فيه، فاعمل بما أمرك، وانته عما نهاك الله([3]).

والثالث: رواه عنه البخاري فقال: "باب قوله **﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾**، قـال ابن عباسﷺ: **﴿قَرَأْنَاهُ ﴾** بيناه **﴿فَاتَّبِعْ﴾** اعمل به"([4]) .

والرابع: أي: (فإذا أنزلناه) معلقاً، رواه عنه البخاري موصولاً في خلـــق أفعـــال العباد، وفيه: "**﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾** فاتبع بحمله، وتفهم ما فيه"([5]).

وعند الطبري من طريق قتادة في قوله**﴿فَاتَّبِعْ﴾** ما يؤيد التأويل الثاني لابن عبـــاسﷺ إذ قال فيه:"اتبع حلاله واجتنب حرامه"([6]).

والتفسير الأول عن ابن عباسﷺ أشهر .

([1])حاشية الصاوي بهامش تفسير الجلالين ٤ /٣٥٣، مرجع سابق .

([2]) أما ابن حجر-رحمه الله تعالى- فقال: "والحاصل أن لابن عباس ﷺفي تأويل قوله تعالى **﴿قَرَأْنَـــاهُ﴾** وفي قولـه **﴿فَاتَّبِعْ﴾**قولين" انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري ٦٨٣/٨، مرجع سابق .

([3]) صحيح البخاري ١٧٧٠/٤، مرجع سابق .

([4]) صحيح البخاري ١٨٧٧/٤، مرجع سابق، وقال ابن حجر-رحمه الله تعالى-: "هذا التفسير رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما - أخرجه بن أبي حاتم" انظر: فتح الباري شرح صحيـــح البخـــاري ٦٨٢/٨، مرجع سابق .

([5]) (البخاري) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن إسماعيل الجعفي ت٢٥٦هـــ: خلق أفعال العباد ٨٤ مراجعة: د. عبـــد الرحمن عميرة، دار المعارف السعودية- الرياض ١٣٩٨هـــ -١٩٧٨م.

([6]) تفسير الطبري ١٨٨/٢٩، مرجع سابق .

ولا تنافي بين هذه التأويلات؛ إذ يصبح المعنى عند الجمع بين الوارد فيها: فإذا أنزلناه فبيناه، بأن قرأه عليه المَلَك مجموعاً مؤلفاً فاستمع له وأنصت، فإذا انتهت قراءة جبريل عليه السلام فاقرأ أنت، ثم اتبع ما فيه من حلال، واجتنب ما فيه من حرام... فكانت ألفاظ التفسير مختلفة بحسب بدايات نزول القرآن ونهاياته؛ إذ البدء يكون بنزول المَلَك، ثم التبيين بقراءة المَلَك أيضاً، وهو مستدعٍ لإنصات النبي ﷺ، ثم تكون مرحلة قراءة النبي ﷺ، ثم مرحلة العمل به...فقد اتفقت في حقيقتها ([1])، ويدل لهذا أن ابن عباس رضي الله عنه فسر قوله تعالى ﴿**أنزلناها**﴾ "النور/١"، كما روى عنه البخاري: بيناها ([2])، وقال ابن حجر:"كذا في النسخ، والصواب (أنزلناها وفرضناها) بيناها" ([3])، فجعل معنى بيناها لفرضناها لا لأنزلناها، وهو غريبٌ من حيث أنه صرح بأن النسخ اجتمعت على أن بيناها معنى لأنزلناها، فكان النظر داعياً إلى التأمل في المناسبة بينهما قبل صرفه بادئ الرأي إلى معنى آخر، **وقد ظهرت للباحث مناسبة معنى الإنزال للبيان** من خلال تأويل ابن عباس رضي الله عنه لقوله ﴿**قَرَأْنَاهُ**﴾ بأنه أنزلناه تارة، وبمعنى بيناه تارة أخرى، فقد جعل ابن عباس رضي الله عنه البيان لازم الإنزال، وما أحسن ذلك بالنظر إلى الذات الإلهية، فتخطئة النسخ جميعاً عرض يفتقد القرينة فنبقى على الأصل .

- ﴿**فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ**﴾([4]): ورد فيها أربعة معان:

أولها: فاستمع له وأنصت: "أي أنصت إلى قراءتنا"([1])، وقال الزمخشري:"فكن مصغياً له فيه، ولا تراسله، **وطمئن نفسك أنه لا يبقى غير محفوظ؛فنحن في ضمان تحفيظه**".

([1]) وهذا التأويل للآيات هو الموافق لتأويل ابن عباس رضي الله عنه كما سبق . وقد قال عنه صاحب التحرير والتنوير ٣٤٩/٢٩، مرجع سابق: "هذا ما لا خلاف فيه بين أهل الحديث وأئمة التفسير" .

([2]) صحيح البخاري ١٧٧٠/٤، مرجع سابق .

([3]) فتح الباري ٤٣٣/٨، مرجع سابق .

([4]) روح المعاني٢٤٤/٢٩، مرجع سابق .

وقال الآلوسي:"فكن مصغياً له لا مبارياً، وقيل:﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾ فاتبع بذهنك وفكرك ﴿قُرْآنَهُ﴾ أي: فاستمع وأنصت، وصح هذا من رواية الشيخين وغيرهما عن ابن عباس ﷺ"([2]) .

وثانيها: أن الضمير في قوله ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ لجبريل عليه السلام، والتقدير: فإذا انتهت قراءة جبريل عليه السلام فاقرأ أنت([3]).

وثالثها: فاعمل ما أمرك .

ورابعها: اتبع مجمله وتفهم ما فيه .

ولا تنافي بينها، بل حال هذه الآية كما سبق فيما قبلها .

- **﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾**: ورد فيه معنيان أيضاً:

أن نبينه بلسانك([4])، والآخر: العمل، وذكر ابن جرير القولين([5])، ولا تنافي بينهما كما يظهر([6])، والقول فيهما كالقول في الآية السابقة، مثلاً بمثل، **وذلك أن بيان مجمله، أو تفصيل مشكله غير كائن إلا بتحقيق لفظه**، وقد يقف الراسخون في العلم حيارى أمام لفظة محرفة، أو مصحفة حتى يتيقنوا لفظها أو يقاربوا، ثم يسبروا غور معناها بعد، والأمر هاهنا كذلك إذ ينصرف معنى البيان انصرافاً أولياً إلى معنى البيان اللفظي، وهو آيل في كلام الله -بعد- إلى البيان المعنوي، فمن فسره بالبيان المعنوي فهو

([1]) التحرير والتنوير ٣٤٩/٢٩، مرجع سابق .

([2])روح المعاني ٢٤٤/٢٩، مرجع سابق .

([3]) فتح الباري ٦٨٣/٨، مرجع سابق .

([4]) وعند البخاري في خلق أفعال العباد٨٤، مرجع سابق: " أن نثبته على لسانك " ولا يعترض بأنه يحتمل أن يكون قد اعتراها التصحيف؛إذ قد ورد في قوله تعالى ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ "الحجرات/٦" القراءة الأخرى﴿فتثبتوا﴾ والمعنى مرتبط بينهما؛ إذ التثبت ثمرة التبين.

([5]) تفسير الطبري١٨٩/٢٩، مرجع سابق .

([6]) كما لا منافاة بين الأقوال الثلاثة التي أوردها ابن جرير ١٨٩/٢٩، مرجع سابق في تأويل ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾وهي: فاستمع قرآنه، فاتبع معانيه من الشرائع والأحكام، فاعمل به .

باعتبار نهاية الأمر، **ولذا قُدِّمَ تأويل الآية بالبيان اللفظي** عند العلماء:

فقال الآمدي:"يجوز أن يراد بالبيان الإظهار، لا بيان المجمل: يقال بان الكوكب إذا ظهر -قال- ويؤيد ذلك أن المراد جميع القرآن، والمجمل إنما هو بعضه، ولا اختصاص لبعضه بالأمر المذكور دون بعض"([1])، ومعنى الجملتين﴿**إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ**﴾: **"إن علينا جمع الوحي، وأن تقرأه، وفوق ذلك أن تبينه للناس بلسانك، أي نتكفل لك بأن يكون جمعه وقرآنه بلسانك، أي عن ظهر قلبك لا بكتابة تقرؤها، بل أن يكون محفوظاً في الصدور، مبيناً لكل سامع لا يتوقف على مراجعة، ولا على إحضار مصحف من قرب أو بعد، فالبيان هنا بيان ألفاظه، ليس بيان معانيه؛ لأن بيان معانيه ملازم لورود ألفاظه"**([2])..، وقال الآلوسي:"يجوز أن يراد بالبيان الإظهار لا بيان المجمل، وقد صح من رواية الشيخين وغيرهما وجماعة عن الحبر أنه قال في ذلك:ثم إن علينا أن نبينه بلسانك، وفي لفظ: علينا أن تقرأه، ويؤيد ذلك أن المراد بيان جميع القرآن، والمجمل بعضه" ([3]) .

وهذا عند التقديم لشيء على شئ، وإلا فإن الآية محتملة لجميع أنواع البيان يقدمها بيان اللفظ إذ الكلام فيه، وغيره بُنِّيَ عليه، **ويقوي ذلك العموم لأنواع البيان**: أن قوله بيانه جنس مضاف فيعم جميع أصنافه من إظهاره، وتبيين أحكامه، وما يتعلق بها من تخصيص، وتقييد، ونسخ، وغير ذلك .

ففي هذه الآيات: تكفل الله له أن يجمعه في صدره، وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه، وأن يبينه له، ويفسره، ويوضحه، فالحالة الأولى جمعه في صدره، والثانية تلاوته وبيانه في مخارج لفظه حق بيانه، والثالثة تفسيره، وإيضاح معناه([4]).

([1]) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٦٣٧/٨، مرجع سابق .

([2]) انظر: التحرير والتنوير ٣٥٠/٢٩، مرجع سابق .

([3]) روح المعاني ٢٤٤/٢٩، مرجع سابق .

([4]) انظر: (ابن كثير) أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ت٧٧٤هـ: تفسير القرآن العظيم ٣٨٣/٤، تقديم: محمد عبد الرحمن المرعشلي، إعداد: مكتب تحقيق دار إحياء التراث العربي، أعد فهارسها: رياض عبد الله عبد الهادي ط١، ١٤١٧- ١٩٩٧م، دار إحياء التراث العربي-بيروت .

وتلخيصاً للمعالم السابقة مع ما ورد في الفصل الأول يقال: انطلاقاً من قاعدتي الإثبات والنفي الحاصرتين المانعتين لأي تدخل من الخلق في أداء كلام الله ﷻ، وهما الوارتان في قوله -تعالى ذكره-:﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ "الحجر/٩" إثباتاً،﴿**لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ**﴾ "الأنعام/١١٥" نفياً، **فإن الحفظ الإلهي للكتاب الكريم في عالم المخلوقين قد بدأت أدواته الواقعية بالتشكل مذ تكلم به الخالق -تعالى ذكره-: فقد اختار الله ﷻ حافظاً قوياً أميناً لنقل كلامه، وتعليمه للخلق بدقة متناهية، ونحن نعرف من وسائل العصر ما يتمكن به الإنسان من حفظ كلامه بلا تغير، بل بنفس المؤثرات التي تحف بكلامه...كالمُسَجِلة التي إذا وجهت رسالة بواسطتها لشخص، أمكنك أن تقول له: قد قلت لك كذا وكذا مع أنك قلته في وقت آخر، ومكان آخر...ولا تكون كاذباً بذلك، وإن كان لم يسمع منك مباشرة ...بل سمع من المسجل، لكن المسجلة لدقة حفظها، وضبطها نقلت نقلاً أميناً ...ولله المثل الأعلى، فقد جعل الله -تعالى ذكره-جبريل عليه السلام أميناً على الوحي قوياً على نقله لدرجة يكاد من دقتها أن يصح القول بأن الذي اقرأ النبي ﷺ هو الله -تعالى ذكره-، ولذا جاز نسبة إقراء جبريل عليه السلام النبي ﷺ كلام الله إلى الله -تعالى ذكره- لشدة ضبطه وإتقانه ودقته ...وهذا هو سر إسناد الفعل إلى الله في قوله ﷻ ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾ مع أن القائم به هو جبريل عليه السلام...فكانت قراءة جبريل عليه السلام مطابقة أمينة تماماً كما تلقاه عن الله -جل وعلا-** .

المطلب الرابع: من فوائد حديث المعالجة (١):

أول فائدة تتعلق بلفظ القرآن: هي أن الالتزام بجمع القرآن في صدر النبي ﷺ ثم جريانه على لسانه كما قرأه جبريل عليه السلام.. لم يقف عند قراءة الألفاظ كما هي، بل تعدى ذلك

(١) عدا ما تقدم في المطالب السابقة .

إلى (بيان الألفاظ) بياناً واضحاً مستمداً من عربية اللسان من حيث العموم، وهيئة تلاوة القرآن من حيث خصوص كونه قرآناً، فتأويل﴿**ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَه**﴾"بتفهيم ما أشكل عليك من معانيه"([1]) قصرٌ لعامٍ بغير دليل، وتخصيص للمعنى بغير مخصص، على أن الأنسب والأوفق للمقام الكلام على اللفظ قبل المعنى "**فإن الكلام له لفظ ومعنى، وله نسبة إلى الأذن والقلب ومتعلق بهما، فسماع لفظه حظ الأذن، وسماع حقيقة معناه ومقصوده حظ القلب**"([2])، وكلاهما مراد بيانه، والأول أولى لأنه طريق إلى الثاني الذي هو الغاية من الأمرين، قال ابن كثير في قوله﴿**ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ**﴾: "**أي بعد حفظه وتلاوته، نبينه لك ونوضحه، ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا**"([3]) .

وثاني فائدة تؤخذ من هذه الآيات مما يتعلق باللفظ: أن الحفظ للألفاظ مقدم على استلهام المعنى وبيانه([4])، وهي القاعدة المستنتجة من قوله﴿**ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ**﴾، فليس المعنى سابقاً للحفظ، والمراد ليس إيجاد المعنى إذ هو قبل اللفظ في حيز العدم والخفاء، وليس المراد استحضاره في الذهن، وهو يدل من جهةٍ أخرى على أهمية ضبط اللفظ، لا على ما زُعِمَ من أن المعاني الأولية هي المقصودة بقطع النظر عن قالبها، وهي ما سمي أصولياً بالمعاني الثانوية([5])، ثم كانت هذه التسمية، وذا التقسيم سبباً في التهوين من الجانب اللفظي للكلمات...وبذا استبان غرور من ادعى سبق الاهتمام بالمعنى، وقد يُسَّلم في أن المعنى يسبق اللفظ من حيث الوجود النفسي، ولكن الكلام هنا عن معنى موجود في الخارج عُبِّر عنه بلفظٍ...فأنّى له أن يُعرف دون عبور ممره الموصل إليه وهو اللفظ؟، وهذا

([1]) حاشية الصاوي ٣/٣٥٤، مرجع سابق .

([2]) تهذيب مدارج السالكين ١/٧٠، مرجع سابق .

([3]) تفسير القرآن العظيم ٤/٣٨٣، مرجع سابق .

([4]) وهو ما رجحه العلماء في فهم الآية كما سبق، على أن الترجيح فرع التضاد، ولا تضاد بحمد الله ...

([5]) واستنتج البعض هذا من فهم خاطئ لكلام الإمام الشاطبي في الموافقات ٢/ ٦٦، مرجع سابق، فإنه إنما مهد بكلامه ذاك عن مسألة الترجمة للقرآن .

هو حال ألفاظ القرآن الكريم؛ إذ لا يُعرف المعنى الذي يُريده اللهﷻ في كلامه إلا بمعرفة لفظه، ولفظه هو ﷻ لا لفظ غيره، وهذا على القول بأن﴿ثُمَّ﴾ في قوله ﷻ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ للتراخي الزمني، إما على القول بأنها للتراخي الرتبي ... فلا تنخرم القاعدة كلياً لكنها تعدل بحيث يقيد بيان المعنى بملازمة إتقان اللفظ إذ هو طريقه .

ولعل هذا المعنى هو الذي يسوغ تعليم الصبيان ألفاظ القرآن، وتحفيظهم إياها، وإن لم يتقنوا معناها .

كما لا ينافي هذا التأويل ما أورده ابن جرير عن ابن عباسﷺ :"كان لا يفتر من القرآن مخافة أن ينساه فقال الله ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ(١٦)إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ﴾ أن نجمعه لك ﴿وَقُرْءَانَهُ﴾ أن نقرئك فلا تنسى"([1])؛ فإنها مؤيدة لما سبق مكملة له ففيها التأكيد على تكفل اللهﷻ بحفظ كتابه من حيث العموم، بالإضافة إلى ما نبأت به الروايات الأولى في هيئات حفظ كتابه من حيث الخصوص (خصوص التلقي في كل مرة) وانظر ما سيأتي في بند تكرار المحفوظ([2]) .

المطلب الخامس: من دلالات الحديث الخاصة:

١- **تحريك الفم:** فالقراءة النفسية لا وجود لها، أو لا تسمى قراءة عند الإطلاق([3]). **ولا يعترض على هذا بأنه:** منتقضٌ بأن القرآن ذِكْرٌ، فيكون في النفس، كالقول؛ إذ قال اللهﷻ: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ "المجادلة/٨"، **لأن القراءة مرتبة أعلى** من القول من حيث تحريك الفم

([1]) تفسير الطبري ٢٩/١٩٠، مرجع سابق .

([2]) انظر: المبحث الثامن من هذا الفصل .

([3]) ولذا بوب الإمام البيهقي في سننه الكبرى ٧/٣٥٠، مرجع سابق: "باب الرجل يطلق امرأته في نفسه و لم يحرك به لسانه".

(الشفتين واللسان)، ولذا قال الله ﷻ ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ "الأعراف/٢٠٤"، ولم يقل (وإذا قيل)، ويدل له: أنه كان يمكن أن لا ينازع الصحابة رسول في القراءة في الصلاة لو قرأوا في أنفسهم، وسمي فعلُهم قراءة، ولكنه أبى عليهم، إذ القراءة لا بد فيها من تحريك الفم، بل وإسماع النفس على الأقل عند بعض الفقهاء([1])...وقد يقال كل ما ذكر معارَض... فيجاب حينئذ بأن القراءة النفسية -إن وجدت- لابد من تقييدها بذلك، ولا يكفي فيها الإطلاق.

وقوله: (فأنا أحركهما) دلالة على أن القراءة لا تسمى كذلك إلا بتحريك الشفتين، ويدل على ذلك آية القيامة﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ وآية طه﴿...وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ...﴾؛ إذ يُلمَحُ منها ضرورة تحريك اللسان في حفظ القرآن إذ النهي مؤقت بقراءة المعلم .

ونأخذ منه أيضاً أفضلية استجماع القلب والإنصات التام للسماع الأول من الشيخ، لتكون خطوات لازمة من خطوات تلقي القرآن، وقراءته، وحفظه.

ومن بواعث تحريك الفم عند قراءة القرآن: الحفظ، وخشية النسيان، وحب القرآن...**ومن أسرار ذلك:** تهييج اللسان لإظهار استسلامه لله، وحركته في طاعة الله ﷻ ومبادرته في المشاركة في إظهار كلام الله ﷻ...فيشترك القلب، واللسان، ثم الجوارح بالعمل في إجلال كلام الله ﷻ، وقال ابن حجر في تجلية عمل اللسان في إحياء البواعث المذكورة: "قوله: (فيشتد عليه) ظاهر هذا السياق أن السبب في المبادرة حصول المشقة

([1]) انظر: (المهدي)أحمد بن يحيى المرتضى ت٨٤٠هـ: البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار، وهامشه: جواهر الأخبار والآثار المستخرجة من لجة البحر الزخار للعلامة محمد بن يحيى بن بهران الصعدي ت٩٥٧هـ، أشرف عليها:عبد الله محمد الصديق، وعبد الحفيظ سعد عطية، دار الكتاب الإسلامي - القاهرة، وانظر: د. مصطفى ديب البغا: التحفة الرضية في فقه السادة المالكية ص٤٠، شرح وأدلة وتكملة متن العشماوية، ط١، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، دار ابن كثير، دمشق- بيروت .

التي يجدها عند النـــزول فكان يتعجل بأخذه لنـــزول المشقة ســـريعا، وبـــين في روايـــة إسرائيل: (أن ذلك كان خشية أن ينساه، حيث قال: فقيل له﴿**لَا تُحَرِّكْ بِـــهِ لِسَـــانَكَ**﴾ تخشى أن ينفلت)، وأخرج بن أبي حاتم من طريق أبي رجاء عن الحسن: (كان يحرك بـــه لسانه، يتذكره، فقيل له: إنا سنحفظه عليك)، وللطبري من طريق الشعبي: (كان إذا نـــزل عليه عجل يتكلم به من حبه إياه)، وظاهره أنه كان يتكلم بما يلقى إليه منه أولا فأولاً مـــن شدة حبه إياه فأمر أن يتأنى إلى أن ينقضي النـــزول، ولا بعد في تعدد السبب"([1]) .

وتعدد السبب مع اتحاد المقتضَى (التحريك) موجب منهجياً اعتماد تحريك الفم عند إرادة تحقيق أحد تلك البواعث(الخوف، والإشفاق،والحب) .

٢- أخذ النفس بالشدة في قراءة القرآن وحفظه:

أما **في القراءة** فحديث التعتعة: عن عائشة-رضي الله تعالى عنها- قالت: قال رســـول الله ﷺ : (الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران)([2])، والماهر لا تظهر مهارته إلا بعد الدُربة، فينهار بناء من بنى ســـهولة أخـــذ القرآن على عربيته أي أن حفظه سهل لمجرد كونه عربياً، وعدم الحاجـــة إلى الكلفـــة في تعلمه؛ إذ قد اتضحت ضرورة الكلفة للقسمين المذكورين في حديث التعتعة .

وأما في الحفظ فظاهر ذلك في حديث المعالجة.

وأما في المراجعة ففي أحاديث التفلت([3]) . فلا بد من أخذ النفس بشيء من الشـــدة في قراءة القرآن، وحفظه، ومراجعته .

والمقتضى المنهجي لهذه الشدة: إعطاء قراءة القرآن، وحفظه، وتلاوتـــه، ومراجعتـــه، حجمها الحقيقي دون هضم، أو تقليل من حجمها، إذ معظم الحالات الواقعـــة في حيـــاة

([1]) فتح الباري ٨/ ٦٨٢، مرجع سابق .

([2]) صحيح مسلم ١/٥٤٩، مرجع سابق .

([3]) انظر: المبحث الخامس من هذا الفصل .

حفاظ القرآن فضلاً عن بقية أمة القرآن التهوين من ذلك إما تكاسلاً، أو تهاوناً، أو هروباً من الإغراق في مفهوم البركة! فيقلل البعض من العزيمة في معالجة الوحي القرآني قراءة، أو حفظاً، أو مراجعة، لئلا يهول مفهوم البركة على مفهوم بذل الأسباب، أو الاطلاع على بقية كتب أهل العلم، أو التوسع في معرفة الثقافات العصرية...وهذه مسألة بحاجة إلى مزيد تدبر دون شطط .

ولا ينافي هذا قوله ﷻ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ "القمر/١٧" كما تقدم([1])، ولما هو ظاهر أن القرآن مُيَسَّرٌ للذكرى، ولا علاقة لذا مع موضوع الحفظ، وحديث التعتعة المذكور آنفاً صريح في هذا التقرير .

٣-مخارج الحروف هي الخمسة المشهورة: فلا يستدل بآية القيامة ﴿**لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ**﴾ على أن اللسان هو المخرج الوحيد، ولذا ذكر في حديث المعالجة (الشفتين)، قال ابن حجر:"قوله: (وكان مما يحرك به لسانه وشفتيه) اقتصر أبو عوانة على ذكر الشفتين، وكذلك إسرائيل، واقتصر سفيان على ذكر اللسان، والجميع مراد إما لأن التحريكين متلازمان غالباً، أو المراد يحرك فمه المشتمل على الشفتين واللسان لكن لما كان اللسان هو الأصل في النطق اقتصر في الآية عليه"([2]) .

ويقال على السياق نفسه: واقتصر على الشفتين واللسان لأنهما الظاهران للعيان، بخلاف الحلق والجوف والخيشوم .

([1]) انظر: المبحث الخامس من هذا الفصل .

([2]) فتح الباري ٦٨٤/٨، مرجع سابق .

المبحث السابع:
التلقي (والتلقين):

يحلل هذا المبحث مصطلح (التلقي)، ولذا فهو يتكون هذا المبحث من خمسة مطالب:

المطلب الأول: تعريفه .

المطلب الثاني: القرآن تلقين وليس إلهاماً .

المطلب الثالث: حكم التلقين .

المطلب الرابع: قواعده .

المطلب الخامس: المقتضى المنهجي لأسلوب تلقي النبي ﷺ.

المطلب الأول: تعريفه:

التلقي في الوضع اللغوي: مأخوذ من الإلقاء، ويظهر في الإلقاء كونه حسياً مشاهداً سواء كان قولاً يلقى باللسان، أو شيئاً يلقى باليد، أو بغير ذلك، فقد ذكر ابن الأثير في النهاية للإلقاء عشرة معان: خمسة منها صريحة في الإلقاء الحسي، ومنه قولهم: مالي أراك لقاً بَقاً؟، فاللقى: المُلْقَى على الأرض، وما بعده إتباع له، ومعنيان صريحان في عودته للخطاب حين مجيئه من جهة لأخرى، وثلاثة معانٍ منها تعود إلى الإلقاء الحسي من حيث كون أصلها واقعاً بالقول، وهو فعل محسوس، ومنه قولهم: ما يلقي لها بالاً: أي ما يحضر قلبه لما يقوله منها، والبال: القلب([1]) .

وتحصل من مفاهيم الإلقاء في الوضع اللغوي الدلالات التالية:

١) **أنه حسي**، فليس أمراً معنوياً، وهو ما يضاد الإلهام من حيث الأصل، فالإلهام شيء معنوي اعتباري .

([1]) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ٤/٢٦٦، مرجع سابق، وكذلك: مختار الصحاح ٦٠٣، مرجع سابق .

٢) **أنه يعتمد على القول المحسوس** عند كون الإلقاء إلقاء لكلام، كما في قوله ﷻ ﴿...**فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ**﴾"النحل/٨٦"، فيكون كذلك من المُلْقي، وهو كذلك من المُتَلَقِي، كما في قوله تعالى ﴿**إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ....**﴾"النور/١٥"، فلا يعقل أن يكون إلقاء الكلام، ولا تلقيه أمراً معنوياً محضاً لغة...هذا خلفٌ من القول تأباه طبيعة الوضع اللغوي، فإذا ورد ما يدل على أنه معنوي، فإما أن يكون ذلك على سبيل المجاز، أو هو معتمد على إلقاء حسي، كقولهم: نُعي إليه فلان فما ألقى لذلك بالاً؛ فإن المراد: ما استمع له، ولا اكترث به([1])، وذلك صريح استعماله مجازاً لا يعلم معناه دون العلم بالإلقاء الحسي، فهو أصله .

٣) **يستعمل إلقاء القول استعمالاً لغوياً خاصاً في التعليم**، وتلقيه في التعلم، والتواصي ...وهما حسيان من حيث الأصل، ومنه قوله تعالى﴿**وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ**﴾"القصص/٨٠"، أي ما يعلمها، ولا يُنَبَّهُ عليها، ومنه قوله ﷻ ﴿**فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ...**﴾ "البقرة/٣٧"([2]).

٤) **يُصاحِب الإلقاء والتلقي عرفاً لغوياً حضور القلب**، فلا يكون مباغتاً، غير مُتَهَيئ له، وذلك واضح مما سبق من سرد لبعض الاستعمالات اللغوية المختلفة للإلقاء ...وذلك يعني الفهم وحسن الأخذ .

والتلقين هو الإلقاء في كل ذلك إلا أنه خاصٌ لغةً بالكلام المُتَعَلَم.

ولا بد من الحُسن في الإلقاء والتلقي، وإلا لم تطلق عليه هذه الكلمة؛ولذا يقال: فلانٌ لَقِن إذا كان حسن التلقي لما يسمعه([3]).

([1]) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ٢٦٦/٤، مرجع سابق .

([2]) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ٢٦٦/٤، مرجع سابق .

([3]) انظر: (الزمخشري) جار الله محمود بن عمر: الفائق في غريب الحديث ٣٢٥/٣، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، ط٢، توزيع دار الباز .

وهذه المعاني كلها تجتمع في تلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن الكريم من جبريل عليه السلام، فهو إلقاء وتلقٍ محسوسين، بين جهتين اعتمدتا القول، حال كونهما حاضري القلب، يعتمد الأخذ بينهما على القول لا غيره من أنواع الإيحاء، مطبقَين في ذلك ضوابط العملية التعليمية والتعلُّمية .

ويظهر ذلك بيناً بلا خفاء عند الجمع بين الوصف العام لأخذ النبي ﷺ ألفاظ القرآن الكريم من جبريل عليه السلام بأنه تعلم كما في قوله ﷻ ﴿**عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى**﴾ "النجم/٥"، وبين الوصف الخاص لذلك بأنه تلقٍ كما في قوله ﷻ ﴿ **وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْءَانَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ** ﴾ "النمل/٦" .

ولا بد من التأكيد على ملاحظة بارزة في **العرف القرآني** لدلالة الإلقاء والتلقي، هي أن الإلقاء لم يستعمل في العرف القرآني إلا للأمر المحسوس، وهذا يعطي التصور الأولي لمفهوم إلقاء ألفاظ القرآن من جبريل عليه السلام للنبي ﷺ، فتذهب الظنون العلمية التي تنافي ذلك في مكانها من التوهمات المحضة .

التلقي في الوضع الاصطلاحي: هو عبارة عن الهيئة المنهجية الشرعية لتعليم الألفاظ القرآنية بأن يقرأ الشيخ الآية، ويتلقاها الطالب عنه بسمعه وفؤاده، فالتلقي بهذا هو العملية المكملة لعملية التلقين إذ التلقين من الشيخ، والتلقي من الطالب، كما قال البخاري -رحمه الله تعالى-:" قال معمر([1]): ﴿**وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ**﴾ "النمل/٦" أي يلقى عليك وتلقاه أنت أي تأخذه عنهم، ومثله﴿**فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ...** ﴾ "البقرة/٣٧"([2]).

وقال أبو عبيدة: "وتلا علينا أبو مهدي آية فقال: تلقيتها من عمي، تلقاها عن أبي هريرة رضي الله عنه تلقاها عن النبي ﷺ وقال في قوله ﷻ ﴿**وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ**﴾

([1]) عنى بمعمر هنا أبا عبيدة معمر بن المثنى اللغوي، انظر: مجاز القرآن، لا معمر بن راشد شيخ عبد الرزاق .

([2]) صحيح البخاري ٦/ ٢٧٢١، مرجع سابق .

"القصص/٨٠": أي لا يُوفَق لها، ولا يُلَقَّنُها، ولا يُرْزَقُها، وحاصله أنها تأتي بالمعاني الثلاثة، وأنها هنا صالحة لكل منها، وأصله اللقاء، وهو استقبال الشيء، ومصادفته"([1]) .

فإذا قيل (الهيئة الشرعية لتعليم القرآن الكريم)، أو أُطلق أحدهما (التلقي أو التلقين) دخل فيه الآخر ضمناً .

فإن اعتُرض بالقول: لم لا يُستخدم مصطلح التعليم بدل التلقين؟ .

فالجواب: أن التلقين أخص من التعليم، ووجه خصوصيته في غاية الأهمية في تعليم ألفاظ القرآن الكريم؛ إذ: **الفرق بين التعليم والتلقين:**

١- أن التلقين يكون في الكلام فقط، والتعليم يكون في الكلام وغيره، تقول: لقنه الشعر، ولا تقول لقنه التجارة والنجارة، والخياطة، كما يقال علمه في جميع ذلك .

٢- التعليم يكون في المرة الواحدة، والتلقين لا يكون إلا في المرات .

٣- التلقين هو مشافهتك الغير بالتعليم، وإلقاء القول إليه ليأخذه عنك، ووضع الحروف مواضعها، والتعليم لا يقتضي ذلك، ولهذا لا يقال: إن الله يلقن العبد، كما يقال إن الله يعلمه([2]) .

وقد ورد تلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن الكريم موصوفاً بالأمر العام،وهو التعليم في قوله ﷻ ﴿**عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى**﴾ "النجم/٥"، وموصوفاً بالأمر الخاص وهو(التلقي)﴿**وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ**﴾ "النمل/٦"لغاياتٍ لن يكون من أهمها: **نفي الإلهام في تلقي** النبي ﷺ، **وإثبات المشافهة صيغةً وحيدةً** للتعليم القرآني من حيث اللفظ .

([1]) (أبو عبيدة) معمر بن المثنى ت ٢١٠ هـ: مجاز القرآن عند ذكر سورة البقرة ٣٨/١، وسورة النمل ٩١/٢، حققه د. محمد فؤاد سزكين، ط١، الخانجي الكتبي بمصر ١٩٥٤م .

([2]) انظر: (العسكري) أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد ت بعد ٣٩٥هـ:الفروق في اللغة ص٧٥ .

المطلب الثاني: القرآن تلقين وليس إلهاماً ([1]):

فهو تعليم مباشر (تلقين) وليس إلهاماً: إذ قد تنوعت وسائل الوحي كما قال ابن قتيبة -رحمه الله تعالى-:"كل شيء دللت به عن كلام، أوكتاب، أو إشارة أو رسالة، وذكر له معان في القرآن: الإشارة، والإيماء، والإلهام، والإعلام في المنام، والإعلام بالوسوسة من الشيطان، والأمر ...ثم قرر أن معناه في خصوص الوحي بالقرآن التلقين من جبريل عليه السلام للنبي ﷺ، ونص قوله في قوله تعالى ﴿**وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ**﴾ "الأنعام/١٩": "فهذا إرسال جبريل عليه السلام بالقرآن"([2]) زاد في فتح الباري من معاني الوحي: الإعلام في خفاء، والكتابة، والمكتوب، والتصويت شيئاً بعد شيء -قال- وقيل أصله التفهيم، وكل ما دللت به من كلام، أو كتابة، أو رسالة، أو إشارة فهو وحي، وشرعاً: الإعلام بالشرع، وقد يطلق ويراد به اسم المفعول منه أي الموحى، وهو كلام الله المنزَل على النبي ﷺ([3]) فمدار الحديث في هذا المبحث حول حالة خاصة من الوحي بمعناه المصدري هو الإعلام والتفهيم بالتصويت شيئاً بعد شيء، وذلك أعم من أن يتمثل له الملك رجلاً، وحول حالة خاصة الوحي بمعنى اسم المفعول وهو القرآن والمراد كيفية تلقي الرسول ﷺ لألفاظه .

ويلاحظ أن المدلول اللغوي للوحي يوضح طبيعته: فلا تراه عين غير الموحى إليه، ولا تسمعه أذن غيره كذلك...ويمكن أن يُدرك ببساطة أن المدلول اللغوي للوحي يشير إلى أن ثم نوعاً منه لا تسمعه الأذن المعتادة، ولا العين المعتادة، ويصل إلى مركز الإبصار، ومركز السمع مباشرة،ويمكن التعبير عنه من

([1]) انظر: حديث المعالجة في المبحث السادس من هذا الفصل .

([2]) (ابن قتيبة) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ): تأويل مشكل القرآن ص٤٨٩، شرحه ونشره: السيد أحمد صقر - المكتبة العلمية .

([3]) فتح الباري ١/١٥، مرجع سابق .

خلال المعاني السابقة للوحي بالقول: التفهيم والإعلام بالتصويت شيئاً بعد شيء، ولذا لما أراد جبريلعليه السلام أن يستعلن للناس كان لا بد من تمثله بصورة البشر، بخلاف الصورة الأشد للوحي، فإنه لا يستعلن، بل يكون خفياً،ولكنه محسوس للنبي ﷺ ،والصحابة إنما يرون آثاره -كما سبق-...فلذا قال ﷺ: (هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم) فلما أراد جبريلعليه السلام أن يعلمهم كان لا بد من أن يتمثل لهم بشراً تدرك عيونهم صورته، وتدرك أسماعهم صوته كما تقدم في الفصل الثاني مفصلاً.

وليس تعليم جبريلعليه السلام الرسولﷺ **بالتصويت شيئاً بعد شيء مسألة فرعية**، بل هي مسألة من مسائل الأصول، يذكرها العلماء في كتب العقائد، فقد جاء في العقيدة الطحاوية عند قول الإمام الطحاوي-رحمه الله تعالى-: "نزل به الروح الأمين، فعلمه سيد المرسلين" قال الشارح: "تصريحٌ بتعليم جبرائيل إياه إبطالاً لتوهم القرامطة وغيرهم أنه تصوره في نفسه إلهاماً"([1]).

ومن أدلة كون الوحي القرآني تلقيناً:

١- قوله ﷻ: ﴿**وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ**﴾ "النمل/٦".

٢- قوله ﷻ: ﴿**فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ**﴾ "القيامة/١٨"؛ ففيها الأمر بالاستماع والانصات؛ إذ الاستماع والإنصات للملَك ينافي الإلهام الذي يقع في النفس دون استماع لأحد،ويُنظر المبحث السابق في معنى الآية .

٣- قوله ﷻ:﴿**سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى**﴾ "الأعلى/٦"؛ إذ الإقراء ينافي الإلهام منافاة لغوية وشرعية .

٤- **أول لقاء لجبريلعليه السلام** بالنبي ﷺ في غار حراء؛ إذ أقرأه و لم يُلْهِمْه، بل أكد له الإقراء بضمه إليه .

([1]) شرح الطحاوية ٣١٥، مرجع سابق .

٥- **حديث الحارث بن هشام** المتقدم([1])؛ إذ حالتا الوحي المذكورتان تنافيان الإلهام .

٦- ويدل على ذلك الباء في قوله ﷻ ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ**﴾"الشعراء/١٩٤" إذ هي: للملابسة، والجار والمجرور متعلق بمحذوف حال، كأنه قال: نزل في حال ملابسة له على حد خرج زيد بثيابه([2])، ولو كان إلهاماً لما احتيج للنزول به.

٧- حديثا المعالجة([3]) والمدارسة([4]).

المطلب الثالث: حكم التلقين:

يجب التزامه منهجاً وحيداً في تعليم ألفاظ القرآن الكريم، ونبذ ما سواه من حيث التقعيد العام([5])، ويؤكد هذا الحكم أسلوب أخذ النبي ﷺ القرآن عن جبريل عليه السلام؛ إذ كان النبي ﷺ في ابتداء الأمر إذا لقن القرآن نازع جبريل عليه السلام القراءة، ولم يصبر حتى يتمها مسارعة إلى الحفظ...قاله الحسن وغير واحد([6])، وقد جاء في رواية ابن أبي حاتم: **يتلقى أوله، ويحرك به شفتيه خشية أن ينسى أوله قبل أن يفرغ من آخره**، وتفصيل الاستدلال أن يقال:

([1]) انظر: الفصل الثاني - المبحث الثالث .

([2]) حاشية العلامة الصاوي على تفسير الجلالين ٣/٢٢٤، مرجع سابق .

([3]) انظر: المبحث السادس من هذا الفصل .

([4]) انظر: المبحث التاسع من هذا الفصل .

([5]) ولم يكن استدلال صاحب كتاب الحلقات القرآنية على وجوب التلقين وسيلة وحيدة في تعليم القرآن الكريم، وتعلمه موفقاً؛ إذ حصر الأمر في دائرة (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب) وذلك مما يُضْعِفُ الحكم، ويجعل الاستدلال على أصل القضية مضيعاً لها . انظر: عبد المعطي محمد رياض طليمات: الحلقات القرآنية، دراسة منهجية شاملة، ط١، ١٤١٧هـ -١٩٩٧م، إصدار برنامج تحفيظ القرآن الكريم-جدة .

([6]) فتح الباري ٨/٦٣٣، مرجع سابق .

كان الوعد بجمع القرآن في صدر النبي ﷺ أولاً، ثم بقراءته كما أُنزل إليه، وكما سمعه من جبريل عليه السلام ثانياً في قوله –تعالى ذكره– ﴿**إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ(١٧)فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ(١٨)ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ**﴾ "القيامة/١٧-١٩"، وعداً من الله ﷻ، فقد صار حقاً على الله ﷻ فعل ذلك ...فليس للقدرة الملائكية التي يتمتع بها جبريل عليه السلام دخل في ذلك، ولا أسند الأمر للقدرة البشرية، وهذا دالٌ على مقدار الاعتناء وعظمة الاهتمام وشدة التوقيف في تلقي لفظ القرآن الكريم .

- وإن كان الوعد إلهي كذلك: **فما فائدة إقراء جبريل عليه السلام له** ؟ أما كان كافياً جمع الله ﷻ القرآن في صدر النبي ﷺ إلهاماً أو قذفاً إلى قلبه بالقدرة الإلهية التي وسعت كل شيء ؟.

والجواب: هاهنا أعظم دليل على وجوب التزام منهج التلقي والتلقين كأساس للمنهجيات التعليمية في إقراء ألفاظ القرآن الكريم...فلا وزن لرسم "خط" المصحف، ولا للغة، ولا لتعلم فردي أحادي دون شيخ(سند)...في تلقي لفظ القرآن الكريم...ولو لم تكن هذه الحكمة، فما كان فائدة إلقاء جبريل عليه السلام القرآن للنبي ﷺ قراءته،ونزوله للقرآن (على) –وليس في– قلب محمد ﷺ ؟ مع أن الإلهام لا يستدعي النزول.

ومنه نأخذ جلالة الركن الأعظم في تعلم القرآن وقبول قراءة لفظ لتعد قرآناً، **وهو السند المقبول قرائياً الضامن للمشافهة** .

- ويتضح من هنا أمر آخر هو: **أن جبريل عليه السلام لم يُعَلّم النبي ﷺ بتلاوته عليه الهيئات الخارجية للأحرف** (والمراد تركيب الحروف المعروف)، والهيئات الداخلية (الهيئات الصوتية للحرف الواحد)، والهيئات اللازمة عند تركيب كلمة بكلمة وحرف بحرف، وهيئات الوقف والابتداء، ونحو ذلك من

أحكام التلاوة، وتفصيلات علم القراءة والتجويد([1])...**لم يفعل جبريل عليه السلام ذلك إلقاءً وقراءةً وإقراءً للفظ القرآني إلا ليقرأها النبي ﷺ على أصحابه والناس أجمعين كذلك، ثم تتناقلها الأجيال كذلك**، فلا يأتي متقولٌ بعد ذلك فيركب من كلمتين أو أكثر لفظاً جديداً أو معنى جديداً فيقرأ به مدام الإجماع السابق في التلقي، والفهم عند السابقين لمعنى الآية ينافيه (بخلاف ما إذا دخل ضمنه أو وضحه)، وذلك كمن يركب معنى جديداً في قوله -تعالى ذكره-﴿**وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ**﴾ "الممتحنة/١"، ويستحل قراءتها كذلك زاعماً أنه لا يوجد دليل ملزم لقراءتها كما تلقيت، أو كمن يركب من قوله ﷻ ﴿**لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ**﴾ "النساء/٧" معنى جديداً؛ بأن يقرؤها:﴿**لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ**﴾ ويسكت، ثم يقول﴿**وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ**﴾؛ إذ التلقي مفسدٌ لهذه القراءة المبتدَعة .

ويبين ما سبق من تفصيلٍ ما تقدم من معنى قوله ﷻ ﴿**فَإِذَا قَرَأْنَاهُ**﴾([2]): أي: عليك بقراءة جبريل عليه السلام... فكان وعداً إلهياً بأن يُكرره النبي ﷺ كقراءة جبريل عليه السلام .

فإن اعتُرض بأنه: قد يعتري قراءة جبريل عليه السلام الخلل...فلماذا ارتكاب تأويل ﴿**قَرَأْنَاهُ**﴾ أي بقراءة جبريل عليه السلام.. ولِمَ لا يكون الإلهام الرباني بديلاً عن استماع جبريل عليه السلام؟ .

([1]) المراد هنا التقعيد العام، لا التفصيلي، وإلا فثَمَّ تفاوتٌ في مقدار التوقيف بين ما ذكر من حيث التفصيل، ففي الوقف والابتداء لا شك أن النبي ﷺ كان يلاحظ جبريل عليه السلام فيه، وكذا الصحابة مع نبيهم، والعادة جاريةٌ بذلك كما يلاحظ في حفظة القرآن مع مشايخهم، والدواعي متوافرةٌ عليه، وقد كانوا يلاحظون ما دونه...ولكن التوقيف فيه عامٌ لا تفصيلي .

([2]) انظر: حديث المعالجة في المبحث السادس من هذا الفصل .

فالجواب: تظهر حكمةٌ بالغةٌ من التعبير عن قراءة جبريل عليه السلام على النبي ﷺ بلفظ **﴿قَرَأْنَاهُ﴾**؛ إذ لم يقل قرأه جبريل عليه السلام، وذلك ليكون من قبيل إسناد ما هو للمأمور للآمر([1])، فقوله: "**﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾** أي إذا قرأه جبريل عليه السلام عنا فأسندت القراءة إلى ضمير الجلالة على طريقة المجاز العقلي والقرنية واضحة"([2])...نفياً لأي حدسٍ، أو تخمينٍ، أو بارقةٍ تتلجلج في الصدور عن عدم إتقان جبريل عليه السلام للقراءة كما أرادها الله تعالى من حيث هيئاتها الصوتية المصاحبة (الداخلية والمشتركة)([3]) فضلاً عن الألفاظ في ذاتها فأوجز لنا في **﴿قَرَأْنَاهُ﴾** إخباره عز وجل بإزالة دخل شيطانٍ قد يطرأ عند تحليل الموقف القرآني بين جبريل عليه السلام والنبي ﷺ إذ كان القارئ هو الله تعالى بإسناد القراءة إليه...**ويُقَرِّبُ هذا بأن يقال: كأن أداء جبريل عليه السلام لألفاظ القرآن الكريم عبارة عن مسجلة تعيد ما تكلم الله عز وجل به، وجبريل عليه السلام كأنه مسجل يعيد ما تكلم الله -تعالى ذكره- به...دون زلل أو خطل في أدق الهيئات الأدائية للحرف فيما خلا الصفة الإلهية المنزهة عن التمثيل والتخيل...فيقرأه جبريل عليه السلام كما نقله عن الله -تعالى ذكره- كما تنقل المسجلة، فجعل الله -تعالى ذكره- إقراء جبريل عليه السلام على النبي ﷺ إقراء من الله -تعالى ذكره- لنبيه ﷺ لشدة دقة جبريل عليه السلام في بيانه للأحرف؛ إذ هو الواسطة بين الله ورسوله محمد ﷺ ينقله كما أقرأه الله عز وجل له تماماً لكل حرف، وأحسن تفصيلاً لكل كلمة .**

وفي هذا يقول ابن كثير: "وأن ييسره على الوجه الذي ألقاه إليه"([4])، وقال الزمخشري:"جعل قراءة جبريل عليه السلام قراءته"([5])، وقال الآلوسي:"أتممنا قراءته عليك بلسان

([1]) حاشية الصاوي، وبهامشه تفسير الجلالين ٣/٣٥٤، مرجع سابق .

([2]) انظر: التحرير والتنوير ٢٩/٣٤٩، مرجع سابق .

([3]) المراد بالمشتركة الصوت المصاحب للحرف عند التقائه حرفاً آخر في كلمته أو في كلمة أخرى، كالإدغام مثلاً .

([4]) ابن كثير ٤/٣٨٣، مرجع سابق .

([5]) الكشاف ٤/١٦٥، مرجع سابق .

جبريل عليه السلام المبلغ عنا"([1])، وفي المقابل **فقد ضمن الله عز وجل قراءة النبي ﷺ ألفاظ القرآن كما أنزله الله سبحانه وتعالى، وبالهيئة التي سمعها من جبريل عليه السلام**، كما قال في الجلالين: "فكان ﷺ يسمع ثم يقرؤه"([2])، ولذا قال ابن عباس رضي الله عنه كما في البخاري: "فكان إذا أتاه جبريل عليه السلام أطرق فإذا ذهب قرأه كما وعده الله عز وجل"([3]).

وهاهنا مسألة مهمة: **إذ الآية حوت الأمر الإلهي بإعادة المقروء كما قرأه جبريل عليه السلام، كما حوت الضمان الإلهي بذلك أيضاً**، والثاني وهو الضمان تقدم ما يثبته من فهم العلماء للآية، والأول قال عنه ابن كثير: "**﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾** أي إذا تلاه عليك الملك عن الله تعالى **﴿فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ﴾** أي فاستمع له ثم اقرأه كما أقرأك"([4])، وقد يسر الله عز وجل ذلك عليه .

المطلب الرابع: قواعد التلقي والتلقين:

من خلال ما سبق يمكن إجمال قواعد التلقي والتلقين في:

١-**قراءة الشيخ على الطالب**، وهو ما كان جبريل عليه السلام يفعله مع النبي ﷺ (السماع من لفظ الشيخ) .

٢-**إنصات الطالب لشيخه** عند استماعه قراءته، وهو ما أُمِرَ به النبي ﷺ.

٣-**استماع الطالب من شيخه**، استماع أُذن وفؤاد، وهو ما أُمِرَ به النبي ﷺ.

٤-**إعادة الطالب المقروء** الذي قرأه الشيخ على الطالب، وهو ما أُمِرَ به النبي ﷺ.

وهاهنا سؤال متعلق بهذه القاعدة:إذ نرى نبينا ﷺ يؤمر بإعادة المقروء كما قرأه الملك مع أن لا حاجة لذلك ما دام قد وعد بجمع القرآن في صدره وإجرائه على لسانه **فلم يكرره بعد استماعه للملك ؟** .

([1]) روح المعاني ١١٧/٢٩، مرجع سابق .

([2]) الجلالين٢٥٤/٤، مرجع سابق .

([3]) انظر: حديث المعالجة في المبحث السادس من هذا الفصل .

([4])تفسير ابن كثير٢٨٢/٤، مرجع سابق .

والجواب: لتثبيت القاعدة الثالثة والرابعة من قواعد التلقي، ولِـمَ يكـرره ﷺ إلا لتبيان أسلوب التلقي؟...ولرسم خطواته بدقة فائقة النظير تؤذن بتوقيفية تلقي اللفظ القرآني من جميع زواياه...وما ظن أنه اجتهاد فهو إلى التوقيف يعود في أصله...إذ التكرار لأمور منها: تثبيت تلاوة القرآن بالهيئة ذاتها، وتنغيماتها التي سُمِعَتْ من الشيخ، بغض النظر عن الصوت من حيث الملاحة ونقيضها، ومنها تثبيت المحفوظ أو المقروء .

٥-**أن يكون المُعاد موافقاً لقراءة الشيخ ومطابقاً لها**، والمراد من الموافقة: الموافقة في أصل الألفاظ وأدائها، وهو ما تراه عند عامة الناس من المقرئين والقارئين...**ويبقى تفاوتهم بعد ذلك من حيث الملاحة في الصوت، والاختلاف في العوامل النفسية إلى تؤدي إلى اختلاف المشاعر والأحاسيس، ويظهر أثرها في القراءة، وقد ترى أن هذه العوامل التي يسمح فيها الاجتهاد في أداء لفظ القرآن ليس مما كلف بها العبد عموماً إذ هي تعود إلى أمر خارج عن نطاق قدرته، وإن كان ثم قدرٌ من الحث على التزام مسلك معين في هذه الناحية: كتدبر القراءة، وقراءة القرآن بحزن .**

وهذا مأخوذ مما سبق في قول ابن عباس رضي الله عنهما: كما قرأه، ويدل له قول النبي ﷺ: (من أحب أن يقرأ القرآن غضاً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد) ([1]).

٦-**أن يصحب القراءة تحريك للشفتين**، وهو ما يعني نوعاً من الجهر بالقراءة، ويدل له فعل النبي ﷺ كما في هذا الحديث؛ إذ النهي مؤقت حتى يقضي جبريل عليه السلام الوحي. فالإنكار عليه ليس لتحريك لسانه وشفتيه، بل لكون هذا التحريك حاصلاً حال قراءة جبريل عليه السلام، فيبقى التحريك هو الأصل عندما ينتهي توقيت النهي، كما يدل له ما سيرد

([1]) السنن الكبرى للنسائي ٥/٧١، مرجع سابق، (ابن ماجة) أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ت٢٧٥هـ: سنن ابن ماجه ١/٤٩، مراجعة: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر - بيروت، صحيح ابن حبان ١٥/ ٥٤٣، مرجع سابق، مستدرك الحاكم ٢/٢٤٧، مرجع سابق، مسند أحمد ٤/٢٧٨، مرجع سابق .

في المقتضيات اللغوية لتعريف القرآن الكريم في مُلحق الكتاب، على أن التلقين لا يتأتى وجوده إلا بالجهر بالقرآن الكريم على ما هو بديهي .

لكن هل يشترط استماع الشيخ لطالبه عند إعادة المقروء؛ إذ في المعالجة: (فكان إذا انطلق جبريل عليه السلام قرأه كما قرأه...) ؟ .

الظاهر أن ذلك بحسب حالة الطالب من حيث اطمئنان شيخه لقدرته على إعادة المقروء باقتدار أو عدم قدرته، وأما أن جبريل عليه السلام لم يكن يسمع من النبي ﷺ لصريح قول ابن عباس رضي الله عنه: فإذا انطلق جبريل عليه السلام قرأه كما قرأه...فالجواب من وجهين:

أولهما: لا نُسَلِّم أن جبريل عليه السلام لا يسمع لعدم إحاطتنا علماً بقدرة جبريل عليه السلام على السماع من حيث تعديها لمكان حضوره أولاً .

وثانيهما: أن ذلك كائنٌ لضمان الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ إعادة المقروء كما قرأه عليه جبريل عليه السلام، ومن هنا أُخذ نظر الشيخ في مدى مقدرة الطالب... فلولا وعد الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ بقراءته على لسانه كما قرأه لما انصرف، ثم إن الوحي يحميه ظاهراً كان أو غائباً، وبذلك يخضع الأمر الواجب في هذه المسألة لمعرفة الشيخ .

وهل يشترط أداء هذه القواعد كلها في التلقي والتلقين ؟ الظاهر عدم الاشتراط للأول؛ إذا استبدل به قراءة الطالب على شيخه، إما ابتداء، وإما حفظاً مباشراً عن ظهر قلب، وذلك لأن النبي ﷺ (الطالب) كان يعرض القرآن على جبريل عليه السلام في رمضان، وأما قراءة جبريل عليه السلام في أول نزول الآيات فسببه عدم معرفة الرسول ﷺ بها ابتداء؛ ولذلك عامل العلماء قراءة العالم معاملة عرض الطالب كما سيأتي تفصيله في حديث المعارضة([1])، وقد يترجح أحدهما (السماع من لفظ الشيخ، أو عرض الطالب على الشيخ) لعارض يراه الشيخ في تلميذه من نجابة أو بلادة...**وهو المعمول به عند المسلمين إلى اليوم** .

([1]) انظر: المبحث التاسع من هذا الفصل .

وهاهنا مسألة في غاية الأهمية من ناحية دراسة وسائل المعرفة المُكْسِبَة لليقين في المنهج الإسلامي وهي: أن ثَمَّ نوعاً من التواتر الذي يفيد اليقين الضروري أو النظري، **وهو التواتر العملي** بأن يتناقل المسلمون العمل في العبادة جيلاً جيلاً دون نكير، فيأخذ حكم المتواتر، ولو كان مستنده آحاداً كأركان الصلاة ومقادير الزكاة، وألفاظ الأذان، ورمي الجمار في مناسك الحج، وكثير من مثل ذلك...ووجود جزئيات في هذا النوع مختلف فيها أمرٌ لا يخرم هذه القاعدة...فاضمم إلى هذه الأمثلة أداء القرآن تجده أولى منها جميعاً، من حيث ثبوت اليقينية له، وهذا تكرار لأمرٍ سبق ذكره في المنهج، أوجبه الاعتناء بالمقام، كما أن تفصيله ليس هنا .

المطلب الخامس: المقتضى المنهجي لما سبق:

وتقرير هذه المسألة له ما بعده، إذ ينبني عليها ثلاثة أمور منهجية:

أولها: التزام هذه الطريقة(التلقي) منهجاً لتعليم القرآن الكريم: إذ إن توافر الدواعي للطرق الأخرى في إنزال القرآن الكريم وحياً([1])، مع عدم استعمالها، وتخصيص طريقة التلقين مع عدم الحاجة إليها إذ أن الله قد تكفل بأن يلهمه القرآن بقوله ﴿**إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ**﴾، وبقوله ﴿**سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى**﴾، قال الشوكاني-رحمه الله تعالى-: "أي سنجعلك قارئاً بأن نلهمك القراءة، فلا تنسى ما تقرؤه"([2])، وهذا وَسْمٌ لاستخدام غيرها بالبدعية، ومن ثم فاستعمال أسلوب القراءة المباشرة من المصحف دون تلقين بدعة، أو أنه تَعَلُّمٌ للقرآن على غير الطريقة التي شرعها القرآن، وهو ما قرره الصاوي-رحمه الله تعالى- في قوله: "**والحكمة في تلقي رسول الله ﷺ عن جبريل عليه السلام ظاهراً أنه يكون سنة متبعة**

([1]) ككونها أسهل وأسرع، وهي بالنظر إلى قدرة الله عز وجل ليست أعسر إذ هي لا تعجز كلمة ﴿**كن**﴾ مع وقوعها في أمور أخرى أقل شأناً من القرآن، ومثالها النفث في الروع، أو الإلهام .

([2]) فتح القدير ٥٢٢/٤، مرجع سابق .

لأمته، فهم مأمورون بالتلقي من أفواه المشايخ، ولا يُفْلِح من أخذ العلم أو القرآن من السطور، بل التلقي له سر آخر"(١)، وهذا أمر مقرر في أذهان المسلمين لم تَمِلْ دائرة تعليمهم عنه مثقال ذرة(٢)، وهذا ما يعطي تصوراً عن مدى الواقعية الحقيقة قوله ﷻ ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ "الحجر/٩".

وثانيها: في التزام هذه الطريقة دفع لإيهام إلقاء الشيطان في ما يتلقنه النبي ﷺ، من حيث واحدية الملك الملقن وعدم تغيره، ومن حيث تعليمه تعليماً تلقينياً، لا تتطرق إليه شبهة الوسوسة، وسيأتي مزيد تفصيل لذلك في فصل دمغ الباطل(٣) .

وثالثها: شمول التوقيفية في أداء الوحي القرآني، ومن ثم تبليغه وتناقله لأصل اللفظ، ولهيئة أدائه.

رابعها: بيانٌ أوليٌ لحجم الاجتهاد في نقل القرآن الكريم من حيث تظاهر جوانب التوقيف في النقل، فبقي الاجتهاد محصوراً فيما تتفاوت فيه قدرات البشر في الأداء مما هو خارجٌ عن نطاق قدرهم كالصوت، أو عدم الإتقان ويدل له حديث التعتعة(٤).

فإن اعتُرض بالقول: ما شأن مقالة البحث: ومقدار الاجتهاد فيه ؟ وأين مكمن الاجتهاد فيا وصف ؟ .

فالجواب: هذا مبحثٌ واسعٌ من حيث تحديدُ أطره حتى لا يُشَطَّ في فهمها، وليُشَر هاهنا إلى ما يتعلق بالجزئية مناط البحث: فمكمن الاجتهاد مع هذا التشديد في التوقيف في تلقي القرآن الكريم—حتى في هيئة استماعه — كامنٌ في الصوت الممنوح من الله ﷻ للإنسان من حيث الملاحة والحسن فقد يكون نديًا، أو أقل نداوة، وفي الصوت من

---

(١) حاشية الصاوي ٣/٨٠، مرجع سابق .

(٢) وقد أسهب في الكلام عن ذلك الإمام الشاطبي في الموافقات، المقدمة الثانية عشرة ١/٩١، مرجع سابق .

(٣) انظر: الفصل الخامس – المبحث الأول .

(٤) انظر: المبحث السادس من هذا الفصل .

الجهر والمخافتة وفي النفس الممنوح من الله ﷻ، على أن التوقيف ضابطٌ حتى لموضوع الجهر والمخافتة؛إذ وردت نصوصٌ تقيد ذلك([1])، ومما يُشار إلى دخول الاجتهاد فيه **جزئياتٌ نادرة لم يرد التنصيص على كيفية النطق الجزئي** لها، فترجع إلى الإحالة العامة فيها على اللغة العربية، كمثل الوقف على أواخر الكلم، وإدخال الروم والإشمام فيه عند من يزعم أن لا نص ورد روايةٌ فيها([2])، **ونحو الوقف والابتداء** إذ أمر الاجتهاد فيه واسعٌ ما دام مراعىً فيه القواعد العامة التي وضعها علماء الإقراء مستقاةً من هيئات التلقين، فهو علمٌ توقيفي في الجملة، **ومثله علم العدد**(الفواصل) ففيه نوع اجتهاد فيما لم يرد نصٌ على عده، أو ورد فيه نصان موهمان للعد وعدمه، فاختلف فيه علماء العدد، لكنه قليل جداً بل نادر إذا ما قورن بالمتفق عليه([3])، لكن الشأن هنا أعلى من الشأن في بقية العلوم النقلية، فلئن كانت تلك العلوم "**كلها مستندةً إلى الخبر عن الواضع الشرعي، ولا مجال فيها للعقل إلا في إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول لأن الجزئيات الحادثة المتعاقبة لا تندرج تحت النقل الكلي بمجرد وضعه فتحتاج إلى الإلحاق بوجه قياسي، إلا أن هذا القياس يتفرع عن الخبر بثبوت الحكم في الأصل وهو نقليٌ فرجع هذا القياس إلى النقل لتفرعه عنه**"([4]) فإن القياس هاهنا -لشدة ضبط التلقين للجوانب المختلفة للفظ القرآن الكريم، ولعدم كون الجزئيات حادثة ولا متعاقبة إذ كلها موجودة -كامنٌ في قياس مثالٍ على مثال ضمتهما قاعدةٌ كلية، وهو المعنى الذي أشار إليه الإمام الشاطبي -رحمه الله تعالى- في قوله في نفي القياس العام في تلقي القراءة:

([1]) كآية الإسراء ﴿...**وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلا**...﴾ "الإسراء/١١٠" مثلاً .

([2]) وفي هذا نظر كبير من حيث أن القراء منعوا أشياء تجوز عربية كالإشمام والروم في المفتوح والمنصوب .

([3]) انظر: الشيخ عبد الفتاح القاضي: بشير اليُسر شرح ناظمة الزهر في علم الفواصل للإمام الشاطبي ص٥، ط١٣٩٧هـ-١٩٧٧م، مطبوعات الأزهر -مصر .

([4]) المقدمة لعبد الرحمن بن خلدون ٥٤٩، مرجع سابق .

وما لقياسٍ في القراءة مدخلٌ.....فدونك ما فيه الرضا متكفلاً

مع قوله في إثبات نوعٍ مخصوصٍ من القياس: "فاقتس لتنضلا"([1])؛ ولذا ترى كثرةً غامرةً من الجزئيات اللفظية القرآنية آتية على غير القياس المخصوص دلالة على أصلية النقل فيها، ولذا احتاج الدارس للقرآن إلى التلقين لزاماً، وأكد تلك الحاجة أن المصحف لم يُكْتَبْ ليوافق الخط اللفظ تماماً كما هو مقرر في علم الرسم بل لا بد من التلقي، وهو ما يجعل العمدة الأولى للقرآن من حيث هو قرآنٌ لا من حيث هو كتاب... .

وفي خصوص الفعل العملي لتلقي النبي ﷺ من جبريل عليه السلام فقد تقدم ذِكْرُ لمظاهره في صفات جبريل عليه السلام في الفصل الأول كما يظهر ذلك بارزاً في ثنايا البحث بما يجعل هذا الأمر قطعياً معلوماً من الدين بالضرورة .

وفي خاتمة هذا المبحث يقال:

قد جاءت آيات القيامة مفصلةً لمدلول قوله ﷻ **﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾** "الحجر/٩"([2])، ومن هذه الآيات المؤكدة المفصلة لآية الحجر نأخذ: تكفل الله المطلق بشأن هذا القرآن: وحياً وحفظاً وجمعاً وبياناً، وهيئة تعليم **﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾**، وإسناده إليه ﷻ بكليته ليس للرسول من أمره إلا حمله وتبليغه([3])، وحتى تبليغه بكيفيةٍ هي الكيفية ذاتها التي سمعها من المَلَك كما تقدم مراراً .

([1]) انظر: (متن الشاطبية): باب الفتح والإمالة، وباب الراءات، مرجع سابق . وانظر: (أبو شامة) شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل الدمشقي المقدسي: إبراز المعاني من حرز الأماني، دار صادر - بيروت، والشيخ عبد الفتاح القاضي ت ١٤٠٣هـ: الوافي في شرح الشاطبية في القراءات السبع، ط٥ -١٤١٤هـ -١٩٩٤م، مكتبة السوادي - جدة، مكتبة الدار - المدينة المنورة .

([2]) وبيِّنٌ شدة وضوح هذه الآية في دورانها حول اللفظ، وفي ذلك ردٌّ على من زعم أن الحفظ المضمون للقرآن الكريم منصرفٌ لمفهوم اللفظ لا للفظ...فإن زال اللفظ فأين لنا بمفهومه؟ .

([3]) وانظر: في ظلال القرآن ٦/٣٧٧٠، مرجع سابق .

المبحث *الثامن:*

كيفية قراءة الرسول ﷺ القرآن على جبريل عليه السلام من حيث الأمر الشرعي، والواقع التطبيقي(١):

وبعد أن ذُكِرَتْ المباحث المتعلقة بنزول الوحي، وكيفية تلقي النبي ﷺ له، وسماته حين ذلك، كان لابد من وصفٍ لما يقوم به النبيﷺ من عملٍ عند قراءته القرآن على جبريل عليه السلام مذ ينزل عليه الوحي القرآني حتى تمام العملية التعليمية، من حيث الأمر الشرعي والواقع التطبيقي...ليُعلَمَ أي شيء كان النبي ﷺ، وأي شيء كان تعلمه لألفاظ القرآن الكريم، وتعليمه...وأي قوم –بعد– هم المسلمون:

أناسٌ علي الخير منهم، وجعفرٌ.....وحمزة، والسجاد ذو الثفناتِ

إذا افتخروا يوماً أتوا بمحمدٍ.....وجبريل، والقرآن، والسورات

وقد تلخص ذلك فيما يلي:

١ – تبدأ باستشعار المصدرية الإلهية للقرآن الكريم دائماً عند قراءة القرآن الكريم: ويظهر أنموذج هذا في قوله ﷻ:﴿ **وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا(١١٣)فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ**﴾، ثم قال بعد: ﴿**ولا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا**﴾ "طه/١١٤" فأكد على المصدرية الإلهية في عدة ألفاظ:﴿**أنزلناه**﴾ على الرغم من أن المباشر للإنزال هو جبريل عليه السلام، ﴿**وصرفنا**﴾، ﴿**نقضي**﴾ في قراءة يعقوب على الرغم من أن المباشر للقراءة هو جبريل عليه السلام، وأشار إلى تفرده بهبة المنح الإلهية، ورأسها القرآن الكريم ﴿**وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا**﴾، ثم وسط بين الآيتين بقوله﴿**فَتَعَالَى اللَّهُ**

---

(١) **أُريد بالأمر الشرعي:** مجموع التوجيهات الشرعية التي أمر الله ﷻ نبيه ﷺ بتطبيقها وأن يقرأ القرآن بها من حيث انتماؤها إلى الأحكام الخمسة، **وأُريد بالواقع التطبيقي:** واقع النبيﷺ من حيث التزامه بتلك التوجيهات، والهدف من ذلك كما سيُذكر أعلاه التأكيد على التوقيفية في لفظ القرآن وأدائه، بالإضافة إلى الأهداف المنهجية الأخرى .

الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ وهي جملة اعتراضية، وفي تفريع الجملة الاعتراضية على إنزال القرآن إشارةٌ أيضاً إلى أن القرآن قانون ذلك الملك، وأن ما جاء به هو السياسة الكاملة الضامنة صلاح أحوال متبعيه في الدنيا والآخرة([1])، وفي هذا السبيل ترى التعبير عن إنزال القرآن يرجع إلى هذه المصدرية عند الكلام على النازل، والمنزَل به، والمنزَل عليه .

ومن **الإشارة إلى هذه المصدرية: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾:** لم يقل فإنه نزله على قلبي مع أن محمداً ﷺ أُمِرَ بإخبار اليهود عن نفسه؛ لأن من شأن العرب إذا أمرت رجلاً أن يحكي ما له عن نفسه أن تخرج فعل المأمور مرة مضافاً إلى كناية نفس المخبر عن نفسه إذا كان المخبر عن نفسه، ومرة مضافاً إلى اسمه كهيئة كناية اسم المخاطب؛ لأنه وإن كان مأموراً بقيل ذلك فهو مخاطبٌ مأمورٌ بحكاية ما قيل له([2])، كما قال الزمخشري موضحاً لذلك: "جاءت على حكاية كلام اللهﷻ كما تكلم به كأنه قيل: قل ما تكلمت به من قولي: من كان عدواً لجبريلعليه السلام"([3]) .**ولهذا حكمة عظيمة من حيث التأكيد على المصدرية الإلهية للقرآن، والدقة المتناهية في نقله من السماء إلى الأرض، فحكاية كلام اللهﷻ اقتضت﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ بالخطاب**...ولو قال (على قلبي) لقيل هذه دعوى، لم يبينها لنا ربك، و لم يقلها... ثم فيه تثبيتٌ لقلب الرسولﷺ ، وطمأنةٌ له من أن تزعزعه كثرة تشكيكات أهل الكتاب ومن والاهم، فكأن الخطاب من اللهﷻ للرسولﷺ قصداً له، لا لخصومه من أهل الكتاب...وهم مقصودون تبعاً لا استقلالاً، وذا يوائم قولهﷻ ﴿**...كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ**

([1]) التحرير والتنوير ٣١٦/١٦، مرجع سابق، وراجع روح المعاني ٣٩١/١٦، مرجع سابق، والبحر المحيط لأبي حيان ٢٨١/٦، مرجع سابق .

([2]) الطبري١/٤٣٦، مرجع سابق .

([3]) الكشاف ٨٤/١، مرجع سابق .

فُؤَادَكَ...﴾ "الفرقان/٣٢" **﴿وَكُلاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾** "هود/١٢٠" .

والكلام في الباء في قولهﷻ:**﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾** "البقرة/٩٧" مؤكد لما ذُكِر هنا، وقد تقدم([1]) .

ولتأكيد التقرير هنا فلْتَتأمّل هذه المصدرية في أول سورة نزلت في قولهﷻ **﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾** "العلق/١"، فالباء لها ثلاثة أوجه من التفسير:

١- **إما أن تكون للاستعانة**، والجار والمجرور متعلقان بالفعل (اقرأ)، أي اقرأ مستعيناً بذكر اسم ربك.

٢- **وإما أن تكون للمصاحبة**، والجار والمجرور في موضع الحال من ضمير اقرأ الثاني مقدماً على عامله للاختصاص، أي اقرأ ما سيوحى إليك مصاحباً قراءتك اسم ربك، فالمصاحبة مصاحبة الفهم والملاحظة لجلاله، ويكون هذا إثباتاً لوحدانية اللهﷻ بالإلهية .

٣- وإما أن تكون بمعنى على كقولهﷻ **﴿مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ﴾** "آل عمران/٧٥" أي على قنطار، والمعنى اقرأ على اسم ربك، أي على إذنه، أي أن الملك جاء على اسم ربك أي مرسلاً من ربك([2]).

ثم تتجلى هذه المصدرية في موقف تعليمه الإقراء في إضافة اسم إلى الاسم الظاهر (ربك) المضاف إلى الكاف، ثم تجلت تارة أخرى في قولهﷻ **﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ...﴾** الثلاث الآيات كالاستئناف البياني، كأنه الرسولﷺ قال: وكيف اقرأ، ولست بقارئ ؟ فأجيب: **الذي علم القراءة بالقلم، يعلمك ما لم تعلم، ولا عجب في أن تقرأ**، إذ العلم يحصل بوسائل أخرى مثل الإملاء والتلقين والإلهام، وتأمل في وصفهﷻ في هذا الموقف بالأكرم... .

([1]) انظر: المبحث الثالث من هذا الفصل .

([2]) انظر: التحرير والتنوير ٣٠/٤٣٦، مرجع سابق، وانظر: تفسير الثعالبي٤/ ٤٢٧، مرجع سابق .

واستشعار المصدرية الإلهية للقرآن له مقتضياته الهامة، وفيما يتعلق بمدار البحث هنا تبرز المقتضيات التالية:

أ- يقذف في قلب الإنسان كل ما تصل إليه مشاعره الداخلية وانفعالاته العاطفية وحركات أركانه الخارجية من التعظيم للهﷻ، وبذل الوسع في تحقيق كلامه، وقد نقل الآلوسي عن الطيبي ما يؤكد هذا من حيث اللفظ، فمما قاله: "﴿**ولا تَعْجَلْ ...**﴾ عطف على قوله ﷻ ﴿**فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ**﴾ لما فيه من إنشاء التعجب، فكأنه قيل: حيث نبهت على عظمة جلالة المنزِل، وأرشدت إلى فخامة المنزَل، **فعَظِّمْ جنابه الملك الحق المتصرف في الملك والملكوت، واقبل بكلك على تحفظ كتابه، وتحقق مبانيه، ولا تعجل به**"([1])، وقال سيد قطب:"**فتعالى الله الملك الحق الذي تعنو له الوجوه، ويخيب في حضرته الظالمون، ويأمن في ظله المؤمنون الصالحون، هو منزِل هذا القرآن من عليائه، فلا يعجل به لسانك**، فقد أنزل القرآن لحكمة ولن يضيعه، إنما عليك أن تدعو ربك ليزيدك من العلم، وأنت مطمئن إلى ما يعطيك، لا تخشى عليه الذهاب، وما العلم إلا ما يعلمه الله؛ فهو الباقي الذي ينفع ولا يضيع، ويثمر ولا يخيب"([2]) .

ب- استمداد العون والتوفيق في تحقيق لفظه، وإتقان مبناه([3])، وعدم نسيِّه أو تفلته من قائله ﷻ، ومنزله جل شأنه ولذاك كانت خاتمة آية طه بالدعاء، ومما يعضد هذا المفهوم ما أعقب الله -جل ذكره- لآية طه من ذِكْرٍ لقصة آدم عليه السلام، حيث قال:﴿**وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا**﴾ "طه/١١٥"، ونسيان آدم عليه السلام هنا كان لأمرٍ واحدٍ محسوسٍ، وذلك عندما وُكِل إلى نفسه في المراقبة، فكيف

([1]) روح المعاني ٣٩٣/١٦، مرجع سابق .

([2]) في ظلال القرآن ٢٣٥٣/٤، مرجع سابق .

([3]) لم يُتكلم عن المعنى؛ إذ ليس مدار البحث، كما سبق .

سيكون النسيان لمتعدد ملفوظ؟، **ولذا فليرجع النبي ﷺ إلى ربه فيستعين على تحمل القرآن وحفظه وأدائه**، فكأنه لما مدح ﷻ القرآن، وحرض على استعمال التؤدة والرفق في أخذه، وعهد على العزيمة بأمره، وترك النسيان فيه ضرب حديث آدم مثلاً للنسيان وترك العزيمة([1])، وذكر ابن عطية: أن في ذلك مزيد تحذير للنبيﷺ عن العجلة لئلا يقع فيما لا ينبغي، كما وقع آدمعليه السلام([2]).

كان ذلك فحوى الأمر الإلهي .

والصورة التطبيقية لهذا قبل التوقيف القرآني على هيئة تلقي القرآن لاستشعار هذه المصدرية: تعجل النبي ﷺ نزول القرآن واستكثاره منه، إذ ورد في تفسير قوله تعالى ﴿**وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ**﴾ ثلاث تفسيرات:

أحدها: أنها كقوله تعالى ﴿**لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ**﴾ .

والثاني: أنها نهيٌ للنبي ﷺ عن استعجال نزول القرآن، لأنه ما يتنزل إلا بأمر ربه ﷻ، وليس للنبي ﷺ من الأمر شيء، ويدل له حبهﷺ للوحي، وتشوقه إليه، قال صاحب التحرير والتنوير:"لما كان النبي ﷺ حريصاً على صلاح الأمة شديد الاهتمام بنجاتهم؛ لا جرم خطرت بقلبه الشريف عقب سماع تلك الآيات رغبةً، أو طلبةً في الإكثار من نزول القرآن، وفي التعجيل به إسراعاً بعظة الناس وصلاحهم، فعلمه اللهﷻ أن يكل الأمر إليه"([3]) .

([1]) انظر: روح المعاني ٣٩٣/١٦، مرجع سابق .

([2]) (ابن عطية) أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٩٩/١٠، تحقيق وتعليق: عبد الله ابن إبراهيم الأنصاري، السيد عبد العال السيد إبراهيم، ط١، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٥م .

([3]) التحرير والتنوير ٣١٦/١٩، مرجع سابق، ونقل الآلوسي -رحمه الله تعالى- نحوه عن الماوردي، وتراجع هذه المصادر لمعرفة التفسير الثالث .

والصورة التطبيقية بعد التوقيف القرآني على هيئة تلقي القرآن: هو استراحة النبي ﷺ(١) من خوف تفلت القرآن منهﷺ بعد تكفل اللهﷻ بعدم ذلك، والإكثار من دعاء **﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾**، واتباع ما أوقفه القرآن من هيئات في حفظه، وعدم استعجال نزول القرآن عليه إذ لكل أجل كتاب، وإرجاع كل فضل ينزله اللهﷻ على نبيهﷺ لمنزله ﷻ، وقد قال أبو حيان -رحمه الله تعالى- في قولهﷻ **﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾**: "وهذا القول متضمن للتواضع لله، والشكر له على ما علم من ترتيب العلم، **أي كما علمتني مآرب لطيفة في باب التعلم، وأدباً جميلاً ما كان عندي فزدني علماً**"(٢) .

ج- على أن من أهم **مقتضيات المصدرية الإلهية التي حفت بالحقائق السابقة تؤدي إلى حقيقة الحق في إنزال القرآن وتلقينه للرسول**ﷺ وتلقيه من جبريلعليه السلام وهو معنى قوله تعالى **﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾** "الإسراء/١٠٥"، **وحقيقة الحق هي أولى دعائم التوقيف في نقل القرآن الكريم .**

٢-الاستماع والإطراق عند تلاوة جبريل عليه السلام عليه: وذلك تنفيذاً لقولهﷻ **﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾** "القيامة/١٨" على ما تقدم(٣) .

والصورة التطبيقية لذلك ما قاله ابن عباسرضي الله عنهما :فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريلعليه السلام استمع [وأطرق] .

وهذا هو الأساس الشرعي والمنهجي في جعل القراءة الابتدائية من الشيخ أو عليه مع نظر الطالب في المصحف هي أول خطوات حفظ القرآن(٤) كما تقدم في التلقين والتلقي(٥).

---

(١) كما عبر ابن عباس رضي الله عنهما في حديث المعالجة، انظر: المبحث السادس من هذا الفصل .

(٢) البحر المحيط ٢٨١/٦، مرجع سابق، ولعله ناقل عن الكشاف ٤٤٨/٢، مرجع سابق .

(٣) انظر: المبحث السادس من هذا الفصل .

(٤) وقد تُعْتَفَرُ هذه الخطوة عند من يوثق به من الطلاب فتكون قراءته على الشيخ هي قراءة الحفظ مباشرة كما تقدم في المبحث السابع .

(٥) انظر المبحث السابع من هذا الفصل .

والاستماع والإنصات يحقق نتائج ترفع من مستوى الاستيعاب المنهجي لألفاظ القرآن الكريم، ومنها:

أ- **أن ذلك ترسيخٌ لاستشعار المصدرية الإلهية**، من حيث الطمأنينة وعدم الجزع، أو الخوف على فوات شيء من القرآن لعموم الوعد الإلهي بالحفظ لكتابه، ثم لخصوص الوعد الإلهي بجمع القرآن في صدر النبي ﷺ وعدم نسيه له إلى أن يبلغه، ثم عدم نسيه له نسياناً كلياً .

ب- **أن ذلك أقوى في استيعاب لفظ الآية**، ومن ثم حفظها أصلاً، ومحلاً، ووضعاً، وأداءً .

ج- **أن ذلك أقوى في استيعاب معنى الآية**، وفَهْمِها بعكس الترديد خلف جبريل عليه السلام فإنه باعث على الاضطراب والارتباك، وخاصةً إن اقترن الترديدُ لموضع سبق بالاستماع لموضعٍ يلحق، قال الآلوسي -رحمه الله تعالى-:"إنه ربما يشغل التلفظ بكلمة عن سماع ما بعدها"([1])، وقال أبو السعود -رحمه الله تعالى-: "**إن استقرار الألفاظ في الأذهان تابع لاستقرار معانيها فيها، وربما يشغل المتلفظ بكلمة عن سماع ما بعدها**"([2]) .

٣-ترديد القرآن بعد انتهاء جبريل عليه السلام من قراءته، ليطمئن القلب بتحفظه:

وهو صريح في الأمر القرآني، والوعد الإلهي ﴿**إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ**﴾ كما تقدم([3])، وقال الزمخشري -رحمه الله تعالى- في قوله تعالى ﴿**وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ...** ﴾"طه/١١٤":"لما ذكر القرآن وإنزاله قال على سبيل الاستطراد:

([1]) روح المعاني ٣٩٢/١٦، مرجع سابق .

([2]) تفسير أبي السعود ٦٦٨/٣، مرجع سابق، وانظر: تفسير أبي حيان ٢٨١/٦، فتح القدير ٤٨٧/٣، أضواء البيان ٥١٨/٤، تفسير القرطبي ٢٥٠/١١، تفسير ابن كثير ١٤٨/٣، مراجع سابقة، وذكر ابن كثير حديث أبي هريرة رضي الله عنه [اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علماً، والحمد لله على كل حال] .

([3]) انظر: حديث المعالجة في المبحث السادس من هذا الفصل .

"وإذا لقنك جبريلعليه السلام ما يُوحى إليك من القرآن، فتأنَّ عليه ريثما يسمعك ويفهمك، ثم أقبل عليه بالتحفظ بعد ذلك، ولاتكن قراءتك مساوقةً لقراءته، ونحوه قولهﷻ ﴿**لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ**﴾"([1]) .

والصورة التطبيقية لذلك ما وصفه ابن عباسرضي الله عنه في حديث المعالجة: فإذا انطلق جبريلعليه السلام قرأه النبي ﷺ... .

٤-تحريك فمه وشفتيه عند الحفظ أو القراءة: وهذا مأخوذٌ من منطوق آيات القيامة، ومن مفهوم حديث المعالجة وقد مضى، ومن الحديث الآتي في الجهر بالقرآن .

٥- (الترتيل)([2]) تبيين الحروف: التَّرْتِيلُ، في القراءة الترسل فيها، والتبيين بغير بغي([3])، وقد عرفه مجاهدبقوله في قولهﷻ: ﴿**وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً**﴾ قال: "بعضه أثر بعض على تؤدة"([4])، وعن قتادة قال: "بينه بياناً"([5]).

فالترتيل يتضمن عنصرين يشكلان ماهيته الذاتية، هما: التأني (التؤدة)، وتبيين الحروف وهما متلازمان، **وهما يقتضيان أمراً ثالثاً:** هو إشباع الحركات، **ويستلزم الترتيل أمراً رابعاً** هو: السكينة والوقار التي تميز قارئ القرآن عن مطرب الألحان، فاجتمعت في الترتيل أربع متضَمَنات: التأني والتؤدة، وتبيين الحروف، وإشباع الحركات، والسكينة والوقار([6]).

([1]) الكشاف ٤٨٨/٢، مرجع سابق .

([2]) حكم الترتيل، وتحليل عناصره الذاتية والطارئة ليس من ميدان البحث، ولذا لن يكون توسع في ذلك .

([3]) مختار الصحاح ص٩٨، مرجع سابق .

([4]) رواه الطبري قال ابن حجر-رحمه الله تعالى- في فتح الباري شرح صحيح البخاري ٨٩/٩، مرجع سابق: "بسند صحيح" .

([5]) تفسير الطبري ٢٨/ ١٢٧، مرجع سابق .

([6]) وذا موضح التأصيل الشرعي لمراتب القراءة المعروفة في علم التجويد .

وللطبيعة التفصيلية لهذا المبحث من حيث معرفة كيف علم جبريل عليه السلام النبي ﷺ القرآن من حيث اللفظ فإنه سيُفْرَدُ لكل من العنصرين الأولين بند مستقل من خلال تحليل قوله ﷻ ﴿...وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً﴾ "المزمل/٤"، وأما الأخيرين فالإشارة العابرة لهما في مقامٍ كذا المقام كافية، ويُلاحَظ التصريح بها جميعاً آتياً في كلام العلماء مما سيرد في البحث عند الكلام عن العنصرين الأولين .

فأما تبيين الحروف فهو لازم التؤدة والتأني؛ إذ من غايات التأني: تفصيل الحروف، قال الآلوسي-رحمه الله تعالى-: "**اقرأه على تؤدة وتمهل وتبيين حروف**، بحيث يتمكن السامع من عدها، من قولهم (ثغر رَتِل) إذا كان مفلجاً لم تتصل أسنانه بعضها ببعض، وأخرج العسكري عن علي في المواعظ أن رسول الله سئل عن هذه الآية فقال: بينه تبييناً، ولا تنثره نثر الدقل، ولا تهذه هذ الشعر، قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ولا يكن هم أحدكم آخر السورة"([1])، وعند الشوكاني: "اقرأه حرفاً حرفاً"، قال الزجاج: "هو أن يبين الحروف، ويوفيها حقها من الإشباع، وأصل الترتيل: التنضيد والتنسيق وحسن النظام، وتأكيد المصدر بالفعل يدل على المبالغة على وجه لا يلتبس فيه بعض الحروف ببعض، ولا ينقص من النطق من مخرجه المعلوم، مع استيفاء حركته المعتبرة"([2])، وقال الطبري: "بينه تبييناً، وترسل فيه ترسلاً"([3])، وقال ابن حجر:"قوله ﷻ ﴿ ...وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً﴾ **أي اقرأه مترسلاً بتبيين الحروف، وإشباع الحركات**"([4]) .

([1]) روح المعاني ١٧٨/٢٩، مرجع سابق، ونحوه عند أبي السعود ٤١٢/٥، مرجع سابق .

([2]) تفسير الشوكاني ٣٨٧/٥، ونحوه القرطبي ٣٦/١٩، مرجع سابق، وقال سيد قطب –وهو المعروف قدره في اللغة العربية-:"وترتيل القرآن وهو مد الصوت به، وتجويده بلا تغنٍ ولا تطرٍ، ولا تخلعٍ في التنغيم" .

([3]) تفسير الطبري ١٢٦/٢٩، مرجع سابق .

([4]) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٢٣/٣، مرجع سابق، وقال في ٨٩/٩: "تبين حروفها والتأني في أدائها، ليكون أدعى إلى فهم معانيها " .

وفي القرآن الكريم تذكر لنا صورة تطبيقية ملائكية([1]) لمبدأ الترتيل في قول اللهﷻ **﴿...وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾** "الفرقان/٣٢" فهو خبر عن الملأ الأعلى، ولأن القراءة توقيفٌ؛ فإن هيئة قراءة القرآن يجب أن تتماثل، و لم يأخذها جبريلعليه السلام في الملأ الأعلى إلا عن اللهﷻ، فحكى اللهﷻ كيفية قراءة جبريلعليه السلام ثم أمر النبيﷺ بقراءة القرآن على الهيئة ذاتها فقال ﷻ: **﴿...وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً ﴾ وصلة ما بين خبر الملأ الأعلى، والأمر الإلهي الكريم مضمرٌ تدل عليه الأخبار الأخرى والتقدير:﴿ ...وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ... ﴾**، وذلك على نسق ما سمعته من جبريلعليه السلام إذ قد رتلناه على لسانه ترتيلاً، وفي أضواء البيان: "**هذه الآية نصٌ بترتيل القرآن ترتيلاً**، وأكد بالمصدر تأكيداً لإرادة هذا المعنى([2])كما قال ابن مسعودرضي الله عنه:لا تنثروه نثر الدقل، ولا تهذوه هذ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة"([3]) .

والصورة التطبيقية لذلك: ما وصف صحابة رسول اللهﷺ كلام نبي اللهﷻ حيث كان يرتل كلامه، ويترسل فيه فجابر بن عبد اللهرضي الله عنه يقول: (كان في كلام رسول الله ﷺ ترتيل أوترسيل)([4])، وعن عائشة -رضي الله تعالى عنها-: (أن النبي ﷺ كان يحدث حديثاً لوعده العاد لأحصاه لم يكن يسرد الحديث كسردكم)([5])، وأنكرتْ على أبي هريرةرضي الله عنه سرعة حديثه، وقالت: (ولو أدركته لرددت عليه)([6])، أي لأنكرتٌ عليه، وبينتْ له أن الترتيل في التحديث أولى من السرد، فقولها "لم يكن يسرد الحديث

([1]) واغتفرت النسبة إلى الجمع خوفاً من اللبس .

([2]) واستدل صاحب التحرير والتنوير ٢٩/ ٣١٦، مرجع سابق: بالمصدر على تأكيد إرادة المعنى، وفي هذا رد على من يتوهم الترتيل هنا بمعنى التنجيم .

([3]) أضواء البيان ٨/ ٦١٠، مرجع سابق .

([4]) سنن أبي داود ٤/ ٢٦٠، مرجع سابق، قال الشيخ الألباني: صحيح .

([5]) صحيح البخاري ٣/١٣٠٧، مرجع سابق .

([6]) صحيح البخاري ٣/ ١٣٠٧، مرجع سابق، صحيح مسلم ٣/ ١٩٤٠، مرجع سابق .

كسردكم أي يتابع الحديث استعجالاً بعضه إثر بعض لئلا يلتبس على المستمع، زاد الإسماعيلي من رواية بن المبارك عن يونس: (إنما كان حديث رسول اللهﷺ فصلاً فهماً تفهمه القلوب)"([1])، وقال في موضع آخر: "قولها (لو عده العاد لأحصاه) أي لوعد كلماته، أو مفرداته، أو حروفه لأطاق ذلك، وبلغ آخرها، والمراد بذلك المبالغة في الترتيل والتفهيم"([2]) .

وإذا كان ذا في حديثه المعتاد، فكيف في تلاوة كلام اللهﷻ ؟ .

وإنما ابتدأ البحث بحديث جابرﷺ حتى لا يَرِدَ على جوهر التقرير هاهنا أن الترتيل قد يراد به التفريق في الإنزال (التنجيم)، فحديث جابرﷺ يرده، وإن كان المعنى الذي قيل واردٌ، لكن في غير ذا المكان([3]) .

وتصف أم سلمة -رضي الله تعالى عنها- **الصورة التطبيقية** لترتيل الرسولﷺ (بأن قراءة رسول اللهﷺ كانت: بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين يعني كلمة كلمة)([4])، وعن ابن أبي مليكة أن بعض أزواج النبيﷺ ولا أعلمها إلا حفصة سئلت عن قراءة رسول اللهﷺ فقالت: (إنكم لا تطيقوها قالت: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾

([1]) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٥٧٩/٦، مرجع سابق .

([2]) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٥٧٨/٦، مرجع سابق .

([3]) وصار الترتيل مستعملاً في عرف العلماء في هذا المعنى لا في معنى التفريق (التنجيم) ففي سنن البيهقي الكبرى٤٢٧/١، مرجع سابق، أن أبا سعيد الخدري ﷺقال: (إني أراك تحب الغنم والبادية، فإذا كنت في غنمك وباديتك، فأذنت بالصلاة، فارفع صوتك بالنداء، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جنٌ ولا إنس، ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة -قال أبوسعيد -:سمعته من رسول اللهﷺرواه البخاري، قال الشافعي: والترغيب في رفع الصوت، يدل على **ترتيل** الأذان" وفيها أيضاً ٥٢/٢، مرجع سابق: "باب كيف قراءة المصلي قال اللهﷻ﴿...وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً﴾قال الشافعي -رحمه الله تعالى-: "الترتيل ترك العجلة في القرآن عن الإبانة" . **وتبيين الحروف، وإشباع الحركات مقتضٍ نوعاً من التفريق بين الحروف تضبطه المشافهة ليُعطى كل حرفٍ حقه ومكانته** .

([4]) سنن البيهقي الكبرى٤٤/٢، مرجع سابق .

تعني الترتيل([1])، وقد صرح متتبعو سننه بأن الترتيل عادته في قراءته، ويقرنون ذلك بعادته في اعتدال أركانه في الصلاة([2])، قال ابن حجر-رحمه الله تعالى-:"ومن المعلوم من عادتهﷺ ترتيل القراءة، وتعديل الأركان"([3]) .

وقد كان ترتيله ﷺ للسورة يصيرها أطول من أطول منها، **وهو الموافق لقراءة معتدلي قراء المسلمين في هذه الأيام**، فقد روى مسلم من حديث حفصة -رضي الله تعالى عنها- أنه ﷺ كان يرتل السورة حتى تكون أطول من أطول منها([4]) .

وعن يعلى بن مملك: أنه سأل أم سلمة -رضي الله تعالى عنها- عن قراءة رسول الله ﷺ وصلاته، فقالت: (وما لكم وصلاته؟، كان يصلي وينام قدر ما صلى، ثم يصلي قدر ما نام، ثم ينام قدر ما صلى، حتى يصبح)، ونعتت قراءته فإذا هي تنعت قراءته حرفاً حرفاً([5]).

وفي معنى قولها(ثم نعتت قراءته) يقول السندي: "أي وصفت وبينت بالقول، أو بالفعل بأن قرأت كقراءته ﷺ . وقوله: (حرفاً حرفاً)، وقال أبو البقاء: نصبهما على الحال أي مرتلة"([6]).

وقوله (حرفاً حرفاً) **يبين العلاقة بين أصل الوضع اللغوي والاستعمال العرفي لكلمة ترتيل** .

([1]) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٦/٢٨٦، مرجع سابق .

([2]) وفيه بيان ماهية الترتيل في عرفهم، وأنه ليس التنحيم الزمني .

([3]) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٢/٢٧، مرجع سابق .

([4]) صحيح مسلم ٦/٣٣٥٢، مرجع سابق، ولا مكان لما ادعاه ابن حبان -رحمه الله تعالى- أن الركعة الأولى من صلاة الظهر إنما طالت على الثانية بالزيادة في الترتيل فيها مع استواء المقروء فيهما، إذ ما الدليل على استواء المقروء؟وما الدليل على ترتيله في الأولى دون الثانية، مع أن عادته المستمرة هي الترتيل ؟ .

([5]) سنن أبي داود ٢/ ٧٣، مرجع سابق، وقال الألباني: " ضعيف " .

([6]) حاشية السندي على النسائي ٢/١٨١، مرجع سابق .

وكان ترتيله في الصلاة نموذجاً عملياً يسمعه الصحابة ثلاث مرات يومياً على الأقل، و لم يكن ترتيله مقتصراً على الفرائض بل ذلك شأنه في النوافل؛ ومن ذلك بوّب ابن حبان في صحيحه:"ذكر ما كان يرتل المصطفى ﷺ قراءته في صلاة الليل"([1]).

وإنما كان الإكثار من هذه الأوصاف لتطبيق النبيﷺ للترتيل، والاستزادة منها في البحث، لأهميتها البالغة في **إثبات أمر جوهري** هو:

تحري صحابة رسول اللهﷺ لنقل الهيئة الداخلية لقراءته (الأداء)، كتحريهم لنقل أصل ألفاظه .

٦- **التأني في تلاوة القرآن:** وهو جوهر الترتيل الذي أمر اللهﷻ به في قوله ﴿...وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً﴾ .

فحقيقة ترتيل القرآن: "قراءته على ترسل، وتؤدة بتبيين الحروف، وإشباع الحركات حتى يجيء المتلو منه شبيهاً بالثغر المرتل، وهو المفلج المشبه بنور الأقحوان، ولا يهذه هذاً ولا يسرده سرداً، كما قال عمر: شر السير الحقحقة، وشر القراءة الهذرمة، حتى يشبه المتلو في تتابعه الثغر، وقولهﷻ ﴿**تَرْتِيلاً**﴾ تأكيدٌ في إيجاب الأمر به، وأنه ما لابد منه للقارئ"([2])، فليس هذا الأمر تحسينياً في القراءة، بل هو مندرجٌ ضمن الطلب الشرعي .

([1]) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ٣١٨/٦، مرجع سابق .

([2]) الكشاف ١٥٢/٤، مرجع سابق، والكلام المنسوب لعمر لم أجده بعد لأي، وإنما ذُكِرَ (شر السير الحقحقة) على لسان الهواتف قبل النبوة، انظر: (الأصبهاني) إسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي ت ٥٣٥هـ : دلائل النبوة ١٦٩/٢، تحقيق: محمد محمد الحداد، ١٤٠٩هـ، دار طيبة - الرياض، وجاءت على لسان الحسن البصري، انظر: (ابن المبارك) أبو عبد الله عبد الله بن المبارك ابن واضح المروزي ت ١٨١هـ : كتاب الزهد ص٤٦٨، تحقيق: حبيب الحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية - بيروت .

والتصريح بالتأني ظاهر في قوله ﷻ **﴿...وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ...﴾** **﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾**؛ إذ في كلٍ منهما زجرٌ عن الاستعجال في حفظ الكتاب الكريم، وذاك في معنى الاستعجال في تلاوته، ولذا قال الزمخشري في قوله ﷻ **﴿كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾**: "**﴿كَلاَّ﴾** زجرٌ لرسول الله ﷺ عن عادة العجلة، وإنكارٌ لها عليه، وحثٌ على الأناة، والتؤدة، وقد بالغ في ذلك بإتباعه قوله **﴿بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾** كأنه قال: بل أنتم يا بني آدم لأنكم خلقتم من عَجَلٍ، وطُبِعْتُمْ عليه تعجلون في كل شيء، ومن ثم تحبون العاجلة"([1])، وقال الآلوسي:"**﴿كَلاَّ﴾** إرشاد للرسول ﷺ، وأَخْذٌ به عن عادة العجلة، وترغيبٌ له في الأناة، وبالغ سبحانه في ذلك لمزيد حبه إياه بإتباعه قوله ﷻ **﴿بَلْ﴾** -ثم سرد الآلوسي غير ذلك المعنى، وعَقَّبَ باستحسان كلام الزمخشري — قال-: واللائق بجزالة التنزيل، ولطيف إشاراته ما أشار إليه ذو اليد الطولى جار الله تجاوز الله عن تقصيراته"([2])، وتفصيل الاستدلال مبسوطٌ في تحليل الموقف القرآني الذي تثيره كل من الآيتين([3]).

وقد بين الله ﷻ مدى هذا النهي، ومدة هذه العجلة المنهيـة: في قوله **﴿وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾** "طه/١١٤".

والغاية من التأني: التدبر، فقد قال ابن كثير: "اقرأه على تمهلٍ؛ فإنه يكون عوناً على تدبره"([4]) .

والتأني يستلزم السكينة والوقار، ولذا ففي تفسير الجلالين: "ورتل القرآن: تثبت في تلاوته"، وقال الصاوي:" اقرأ بترتيلٍ، وتؤدةٍ، وسكينةٍ، ووقار"([1]).

([1]) الكشاف ١٦٥/٤، مرجع سابق، وكذا أبو السعود ٤٣١/٥، مرجع سابق .

([2]) روح المعاني ٢٩ /٢٤٥، مرجع سابق .

([3]) انظر: حديث المعالجة في المبحث السادس من هذا الفصل .

([4]) ابن كثير ٣٧٠/٤، مرجع سابق، ونحوه عند الشوكاني في فتح القدير ٣٨٧/٥، مرجع سابق .

والتأني يقتضي إشباع الحركات كما سبق في كلام الزمخشري آنفاً، وفي التحرير والتنوير: "وأُريد بترتيل القرآن: ترتيل قراءته، أي التمهل في النطق بحروف القرآن حتى تخرج من الفم واضحةً، مع إشباع الحركات التي تستحق الإشباع"([2]) .

وقال ابن حجر-رحمه الله تعالى- في حديث المعالجة([3]): "وشاهد الترجمة منه: النهي عن تعجيله بالتلاوة؛ فإنه يقتضي استحباب التأني فيه، وهو المناسب للترتيل"([4]) .

وتذكر حفصة -رضي الله تعالى عنها-**الصورة التطبيقية لهذا التأني في قولها**: كان النبي ﷺ يرتل السورة حتى تكون أطول من أطول منها، ويزيد هذا إيضاحاً حديث أبي وائل قال: غدونا على عبد الله فقال رجل: قرأت المفصل البارحة فقال: (هذّاً كهذ الشِعر؟، إنا قد سمعنا القراءة، وإني لأحفظ القرناء التي كان يقرأ بهن النبي ﷺ، ثماني عشرة سورة من المفصل، وسورتين من آل حم)([5]).

وإنما قال: (هذّاً كهذ الشِعر)؛ لأنهم كانوا إذا أنشدوا القصيدة، أسرعوا ليظهر ميزان بحرها، وتتعاقب قوافيها على الأسماع، والهذ: إسراع القطع([6]) .

فإذا حُلِلَ هذا الكلام ملياً من حيث تعريف الترتيل اللغوي، ومتضَمَّناته في الاستعمال العرفي حتى يتم الوصول إلى تقريبٍ لمقدار هذه التؤدة، وضبطٍ لذاك التمهل([7])؛ إذ غير خافٍ أن إنشاد الشعر في المحافل عادةً لا يخلو من ترتيبٍ وتفاعلٍ بين المعنى والمبنى،

([1]) حاشية الصاوي ٣٣٨/٤، مرجع سابق .

([2]) التحرير والتنوير ٣١٦/٢٩، مرجع سابق .

([3]) انظر: المبحث السادس من هذا الفصل .

([4]) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٩٠/٩، مرجع سابق .

([5]) صحيح البخاري ١٩٢٤/٤، مرجع سابق .

([6]) التحرير والتنوير ٣١٦/٢٩، مرجع سابق .

([7]) **وليس في تفاوت ضبط ذلك حجةٌ لمنكر التواتر في الأداء، إذ أصل الأداء كالمد مثلاً: ثابتٌ عند عامة المسلمين، فضلاً عن عامة القراء، وهو ما يدور الكلام حوله، أما مراتبه فقد يُسَلَّم بالنظر في تواترها، ولا ضير في ذلك .**

وترتيلٍ مع إسراعٍ يُعْرَفُ عند سماع الشعر، كما لا يخلو من نوع محاولة إلصاقٍ بآخر البيت لتتناغم أوزانها وكلماتها، وذاك حالةٌ بين السرعة المفرطة المُشَبَّهةِ بقراءة نشرات الأخبار، أو إلقاء خطب المنابر المُهَيِّجةِ للسامع، وبين الإبطاء الممل...**فإذا كان هذا الإلقاء للشعر مذموماً، وهو بهذه المنزلة غير المتعجَلة الإلقاء نسبياً من حيث واقعُه، ظهر أن ترتيل القرآن الكريم يستلزم تأنياً أكثر، وتؤدةٌ أعظم، ومحاولة إظهارٍ للمبنى أجمل، تتكفل بإبداءٍ للمعنى أكمل، لا على حسابه كما هو معلوم، من غير مبالاة بإدراك نهايات الآيات، وخواتيم السور...وهذا الضبط لتلك التؤدة هو ما تسمعه من مهرة القراء في عصرنا كما في كل عصر، وهو ما عليه غالب حال المسلمين حتى الأميين منهم الذين لا يعرفون إلا بعض آيات يرددونها، فإنه يظهر تغير طريقة قراءتهم، ونبرات صوتهم إن كانت للقرآن الكريم**([1]).

وليضبط هذا التأني من الجهة المقابلة: إذ إن الاهتمام باللفظ على حساب المعنى، أو الغلو في التؤدة، أو الإفراط في التغني بالقرآن مداً، وابتداء، ووقفاً... يضاد غاية الترتيل، ويصبح اللفظ غاية بعد أن كان وسيلة، ويكون القرآن كتاباً للاستمتاع الموسيقي المجرد فحسب، وهو كتاب الهداية...فلا يَرِدُ على ما قُرِّرَ آنفاً ما انحدر إليه بعض متزعمي الإقراء، ومتصدريه في هذا الباب .

فإن اعتُرض بأن الرابط بين ما يرومه هذا المبحث من بيان متعلقات تعليم جبريل عليه السلام للنبي ﷺ من حيث اللفظ وبين موضوع الترتيل غير واضح، ولا نص صريح في علاقة جبريل عليه السلام بالترتيل ؟ .

فالجواب: كان الأمر بالترتيل مبكراً على سنن نزول الوحي، فقد كان جملة ما نزل من القرآن حين نزول أوائل سورة المزمل سورتين أو ثلاث على أصح الأقوال([2])،

([1]) وهذا من أعظم أدلة التواتر، وهو ظاهرةٌ ليست بغريبة على المناهج المعرفية لدى المسلمين تدل على مقدار الحفظ الإلهي للكتاب الكريم .

([2]) انظر: الإتقان ١/٢٠، مرجع سابق .

ويشير قوله ﷻ فيها﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ "المزمل/٤"([1]) إلى أن القرآن بادئ بالنزول، وهذه بداية إضافية لا حقيقية أوجب تقريرها الكثرة الكاثرة لما سينزل من الوحي بعدها مقارنة بما سبق...ولما كان جبريل عليه السلام هو المقرئ لرسول الله ﷺ ما ينزل من القرآن، كما أنه الذي يعارضه به تعاهداً، ومراجعة، وتثبيتاً، فقد لزم أن يكون جبريل عليه السلام هو الذي يقرئه بالترتيل ابتداء، وهو ما صرح به في قوله ﷻ ﴿...وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ "الفرقان/٣٢" .

ولا يُرتضَى القول بأن المراد بالترتيل في هذه الآية هو التفريق الزمني في الإنزال لقرينة سياق الآية، فأولها قوله ﷻ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً...﴾ "الفرقان/٣٢"؛ لأن التأسيس أولى من التأكيد([2])، وقد تقدم في سياق الآية التنبيه على تفريق القرآن زمنياً في إنزاله إلى الأرض من كلام الكفار مع إقرارهم على ذلك وبيان الحكمة منه، فصارت نهاية الآية دالةً على معنى آخر هو هيئة تلاوة القرآن، على أن العُرف الشرعي قاضٍ بأن لفظة (رتل) مستعملةٌ في هيئة أداء القرآن([3]) لا في تنجيمه، وقد تقرر في الأصول تقديم الحقيقة الشرعية والعرفية على اللغوية([4])، **فتحور من هذا أن جبريل عليه السلام كان يقرئ النبي ﷺ القرآن بالترتيل** .

ويختم هذا بالقول:

إن سورة المزمل قد نعتت بدقة الطبيعة الذاتية للقرآن الكريم﴿قَوْلاً ثَقِيلاً﴾، وكيفية وصولها من السماء إلى الأرض﴿سَنُلْقِي﴾، ووسيلة الاستعانة على تلقيه﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾،

([1]) والقول الثقيل هو القرآن كما تقرر عند أئمة التفسير، انظر: التحرير والتنوير ٢٩/٢٦٠، مرجع سابق .

([2])انظر مثلاً في علم أصول الفقه:نثر الورود ١/٢٢٥، مرجع سابق .

([3]) كما في قوله ﷻ ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً﴾ "المزمل/٣"، وقول النبي ﷺ (...اقرأوارقورتل...) وسيأتي تخريجه بعد قليل في هذا الفصل .

([4]) انظر مثلاً في علم أصول الفقه: نثر الورود ١/١٢٠، مرجع سابق، المستصفى ١/٣٤١، مرجع سابق، نهاية السول ٢/١٤٥، مرجع سابق .

وهيئة النطق به، والوقت المختار لمراجعته، وبيان الأوقات التي تصرف في أمورٍ أخرى غير مراجعته وتعاهده...وإذ قد كانت هذه العناية الكثيرة الدقيقة...عُلِمَ مقدار التوقيفية في نقل لفظ القرآن الكريم .

فإن اعتُرض بأن: الإلقاء هو هيئة أداء القرآن من جبريل عليه السلام للنبي ﷺ، ولا دليل أصرح فيه من آية المزمل﴿ **إِنَّا سَنُلْقِي**﴾، والإلقاء هو رمي الشيء من اليد إلى الأرض وطرحه، ويقال: شيءٌ لقىً: أي مطروح، وإذا كان كذلك فهو لا يفيد التمهل .

فالجواب: عن هذا الإيراد:

١- غاية ما يدل عليه أصل الوضع اللغوي لمادة ألقى هو الطرح، فأين اقتران السرعة معه أو عدم اقترانها؟، على أن الحقيقة العرفية مقدمةٌ على الوضع اللغوي .

٢- لا يضرب دين الله تعالى بعضه ببعض، بل يؤخذ هذا الدليل مجموعاً إليه بقية الأدلة السابقة والمقترنة، **فيكون النقل محققاً، والتقرير مصدقاً** .

٣-الإلقاء في آية المزمل مستعارٌ لمعنى الإبلاغ الذي يأتي دفعة واحدة لأن النبيﷺ لم يكن متوقعاً له، ولا مترقباً حدوثه، فأُريد تنبيهه على كمية المُلقى عليه من خلال ما يشعر به لفظ (نلقي) ليقدر الأمر حق قدره، فاستعير الإلقاء للإبلاغ دفعةً على غير ترقب([1]) .

ويدل على أنه ليس المراد بالإلقاء القذف دون تمهلٍ: ورود التعبير عنه في السنة بالنبذ (فينبذه إلي) وذلك عندما يتمثل الملك له رجلاً، وهذا الوصف يضاد معنى القذف السريع؛ إذ أن الرجل عندما ينبذه إليه إنما ينبذه في لغة البشر ولا يقتضي ذاك السرعة، وقد ورد التعبير عن الكلام بالإلقاء في قوله تعالى ﴿**فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ**

([1]) التحرير والتنوير٢٩/٣١٧، مرجع سابق .

لَكَاذِبُونَ ﴾ "النحل/٨٦"، ومنه قولهﷻ **﴿فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴾** "طه/٨٧"، وتقدم تفصيل ذلك في المبحث السابع .

على أن هذا الإيراد غريبٌ في مدخله، من حيث أن الوحي يستلزم السرعة وإلا لا يسمى وحياً، ويرد فيه ما سبق، ثم إن السرعة واضحٌ معناها في النسبية (الإضافية) مقارنةً بفعل البشر، لا من حيث أنها سرعة مطلقة .

وهنا أمرٌ ينبغي التنبه له هو أن الإلقاء إنما يكون للأمر الحسي كالحجر والكلام، وقد يستعار للأمر غير المشاهد كالوسوسة كما في قولهﷻ **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾**"الحج/٥٢"([1]).

٧- التغني بالقرآن، والجهر به: فعن أبي هريرةرضي الله عنه أنه كان يقول: قال رسول اللهﷺ: (لم يأذن الله لشيء ما أذن للنبي يتغنى([2]) بالقرآن)، وقال صاحبٌ له: يريد يجهر به([3])، زاد في لفظ له: قال سفيان: تفسيره يستغني به([4])، وفي لفظ: (ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت بالقرآن يجهر به)، وعن معقل بن يساررضي الله عنه قال: قال رسول اللهﷺ : (لا يأذن الله لشيء إذنه لأذان المؤذنين، والصوت الحسن بالقرآن) ([5])، وعند ابن حبان (ما أذن الله لشيء كأذنه للذي يتغنى بالقرآن يجهر به)([6]).

([1]) انظر: تحليل هذه الآية في الفصل الخامس، وكان هذا التنبيه حتى لا يُظَنَّ أن الإلقاء معنوي فقط، فيجوز أن يكون إلهاماً .

([2]) قال ابن حجر في الفتح ٩/٧٠، مرجع سابق: "قال ابن الجوزي: اختلفوا في معنى قوله (يتغنى) على أربعة أقوال: أحدها: تحسين الصوت، والثاني: الاستغناء، والثالث: التحزن، قاله الشافعي، والرابع: التشاغل به، تقول العرب: تغنى بالمكان أقام به، وفيه قول آخر حكاه ابن الأنباري في الزاهر قال: المراد التلذذ والاستحلاء له، كما يستلذ أهل الطرب بالغناء، فأطلق عليه تغنياً من حديث {أنه يفعل عنده ما يفعل عند الغناء}، وهو كقول لبابغة:

بكاء حمامة تدعو هديلاً مفجعةٍ على فَنَنٍ تغني،

أطْلَق على صوتها غناءً؛ لأنه يطرب كما يطرب الغناء، وإن لم يكن غناء حقيقة".

([3]) صحيح البخاري ٤/١٩١٨، مرجع سابق .

([4]) وفي سنن الدارمي ١/٧٦٥، مرجع سابق: وقال: "يريد به الاستغناء"، ولا شك في ضعف هذا الرأي إن أُريد به نفي الآخر، وليس المقام بمتسع لتفصيل ذلك، فيُكتفَى بالإشارة العابرة أعلاه .

([5]) المعجم الكبير ٢٠/٢١٦، مرجع سابق .

([6]) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ٣/٣٠، مرجع سابق .

والمعنى: "ما أذن الله لشيء كأَذَنه لنبي يتغنَّى بالقرآن أي ما استمع الله لشيء كاسْتماعه لنبي يَتَغنَّى بالقرآن أي يْتلُوه يَجْهَر به"([1]) .

وقال أبوحاتم بن حبان: "قوله ﷺ يتغنى بالقرآن يريد يتحزن به، وليس هذا من الغُنية، ولوكان ذلك من الغنية لقال (يتغانى به)، و لم يقل (يتغنى به) وليس التحزن بالقرآن وطيب الصوت، وطاعة اللهوات بأنواع النغم بوفاق الوقاع، **ولكن التحزن بالقرآن** هو: أن يقارنه شيئان: الأسف والتلهف: الأسف على ما وقع من التقصير، والتلهف على ما يؤمل من التوقير، فإذا تألم القلب، وتوجع، وتحزن الصوت، ورَجَّع، بدر الجفنُ بالدموع، والقلب باللموع، فحينئذٍ يستلذ المتهجد بالمناجاة، ويفر من الخلق إلى وكر الخلوات، رجاء غفران السالف من الذنوب، والتجاوز عن الجنايات والعيوب، فنسأل الله التوفيق له"([2])، فقوله (ما أذن الله): يريد ما استمع الله لشيءٍ (كأَذَنه) كاستماعه للذي يتغنى بالقرآن يجهر به يريد يتحزن بالقراءة([3]) .

وفي سنن البيهقي: "قال أبو عبيدة: في قوله (كأذنه) يعني ما استمع الله لشيء كاستماعه لنبي يتغنى بالقرآن، و لم يرض ومن رواية من روى كإذنه قال وقوله (يتغنى بالقرآن) إنما مذهبه عندنا تحزين القراءة"([4]) .

والمعنى المتَحَصَّل من أقوال أئمة الشأن: أن لفظ (أذن) بفتحة ثم كسرة في الماضي، وكذا في المضارع مشترك بين الإطلاق، والاستماع تقول: أذنت آذن بالمد، فإن أردت الإطلاق فالمصدر بكسرة ثم سكون، وإن أردت الاستماع فالمصدر بفتحتين، كما قال عدي بن زيد:

([1]) النهاية في غريب الأثر ٣٣/١، مرجع سابق .

([2]) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ٢٧/٣، مرجع سابق .

([3]) انظر: صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ٣٠/٣، مرجع سابق .

([4]) سنن البيهقي الكبرى ٢٢٩/١٠، مرجع سابق .

أيها القلب تعلل بِدَنْ إن همي في سماع وأذَنْ

أي في سماعٍ واستماع، فأصل أَذَن بتفحتين أن المستمع يميل بإذنه إلى جهة من يسمعه([1]).

وهو ما قرره العلماء، وشهد له الاشتقاق اللغوي، وممن قرر ذلك:

قال السيوطي: " قال النووي: معناه عند الشافعي وأصحابه وأكثر العلماء من الطوائف وأصحاب الفنون: **تحسين صوته به**، والصحيح أنه من تحسين الصوت ويؤيده الرواية الأخرى يتغنى بالقرآن يجهر به"([2]) .

وقال السندي:"يتغنى بالقرآن: أي يحسن صوته به حال قراءته أو هو الجهر، وقوله (يجهر به) تفسير له أو يلين، ويرقق صوته ليجلب به إلى نفسه والى السامعين الحزن والبكاء، وينقطع به عن الخلق إلى الخالق جل وعلا "([3]) .

وواضحٌ أن هذه مرتبة فوق مرتبة الترتيل... .

٨- **الترجيع في القرآن:** هو تقارب ضروب الحركات في القراءة، وأصله الترديد، وترجيع الصوت: ترديده في الحلق([4]) .

والصورة التطبيقية لذلك: ما رواه معاوية بن قرة عن عبد الله بن المغفل المزنيرضي الله عنه قال: رأيت رسول اللهﷺ يوم الفتح على ناقة له يقرأ سورة الفتح أو من سورة الفتح - قال -: فرجع فيها، قال: ثم قرأ معاوية يحكي قراءة ابن مغفل، وقال: لولا أن يجتمع الناس عليكم لرجعت كما رجع ابن مغفل يحكي النبيﷺ فقلت لمعاوية كيف كان ترجيعه قال آ آ آ ثلاث مرات([5]).

([1]) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري ٢٧٦٩/٩، مرجع سابق .

([2]) الديباج على صحيح مسلم ٣٩٣/٢، مرجع سابق .

([3]) حاشية السندي على النسائي ١/ ١٨٠، مرجع سابق .

([4]) فتح الباري ٩٢/٩، مرجع سابق .

([5]) صحيح البخاري ٢٧٤٢/٦، مرجع سابق .

فهذا يحتمل أمرين: أحدهما: أن ذلك حدث من هز الناقة، والآخر: أنه أشبع المد في موضعه، فحدث ذلك، والثاني هو الصحيح بقرينة السياق؛ فإن في بعض طرقه (لولا أن يجتمع الناس لقرأت لكم بذلك اللحن) أي النغم .قال ابن حجر:"**والذي يظهر أن في الترجيع قدراً زائداً على الترتيل**، فعند ابن أبي داود من طريق أبي إسحاق عن علقمة قال: بت مع عبد الله بن مسعود في داره، فنام، ثم قام، فكان يقرأ قراءة الرجل في مسجد حيه لا يرفع صوته، ويسمع من حوله، ويرتل، ولا يرجع"([1])، ويدل لهذا الكلام ما جاء عن أم هانئ –رضي الله تعالى عنها-: كنت أسمع صوت النبي ﷺ وهو يقرأ وأنا نائمة على فراشي يُرَجِّعُ القرآن([2]) .

كما يدل هذا الحديث على أن الترجيع غالب فعله في تلاوة القرآن الكريم .

فقد تحصل من هذا أن أداء القرآن يستلزم: تحريك اللسان والشفتين(القراءة)، والترتيل، والتغني، والترجيع .

ويتضح مما سبق أن **أداء القرآن ينقسم إلى قسمين:**

أ- **الأداء الأصلي**، ويمثل الترتيل بعناصر حقيقته، وهو المسمى في علم التجويد: حق الحروف .

ب- **الأداء الفرعي:** ويمثل التغني والترجيع حقيقة، ويسمى في علم التجويد مستحق الحروف .

واللفظ يستحيل معناه بتغير الأداء الأصلي، أو تركه، وقد يحدث ذلك بترك الأداء الفرعي .

([1]) فتح الباري ٩٢/٩، مرجع سابق .

([2]) (الطحاوي) أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة ٣٢١هـ: شرح معاني الآثار ٣٤٤/١، مراجعة محمد زهري النجار – ط١، ١٤١٠ هـ – ١٩٩٠م، دار الكتب العلمية –بيروت .

فالمراتب في أداء لفظ القرآن الكريم أربعة من حيث الماهية اللغوية، والمدلول الشرعي (وترجع هيئات الترتيل من تحقيقٍ، وحدرٍ، وتدويرٍ إليها):

أ- **القراءة:** ولا تكون إلا بإخراج كل حرفٍ من مخرجه، وهي جنسٌ عامٌ للقرآن وغيره، وأصبحت القراءة تنصرف إلى قراءة القرآن عن ظهر قلبٍ عندهم، وهو المفهوم من كلمة (القرآن) أي المقروء من الصدر، في مقابل لفظ الكتاب أي المكتوب، ويقتضي هذا المفهوم أن يُقْرَأ من الصحف التي كُتِبَ فيها، أو من الصدور التي حُفظ فيها بالتلقي من الأفواه .

ب- **الترتيل:** وهو هيئةٌ خاصةٌ بالقرآن الكريم، فهو مرتبةٌ أعلى من القراءة، وعلى هذا فإن الترتيل يحتوي مراتب القراءة الثلاثة الشهيرة: التحقيق، والحدر، والتدوير بحسب تفاوت درجات الترتيل ليكون أحدها .

ج- **التغني:** وهو هيئةٌ خاصةٌ بالقرآن الكريم، فهو مرتبةٌ أعلى من الترتيل، ففيه تنغيمٌ للصوت على القواعد المتلقاة، فلا يَرِدُ عليه الغناء المعروف عند البشر .

د- **الترجيع:** وهو ترديدٌ للفظ المقروء المرتَل المُتَغنى به، أو زيادة تحبيره وتحسين أدائه بزيادة تحقيق المد ونحوه .

<u>وعلى هذا التقرير</u>: فلا يمكن إطلاق القول بنفي تواتر الأداء حتى يُسأل عن ماهيته المقصودة من هذه المراتب، وتواترها(اليقين في ثبوتها) بدهيٌ واضح، وإن تفاوتت مراتبها في التواتر، فما ورد على ألسنة بعض العلماء([1])من نفيٍ لتواتر الأداء يُحْمل على الأداء الذي لا ينضبط بالتلقي، وهو ما صرَّح به ابن خلدون، وذلك كتحديد مراتب المد بالدقة المتناقلة بعدد الحركات، فإن أصل المد راجعٌ إلى ذات الحرف (وهو المسمى بالمد الطبيعي)، وهذا يندرج في (القراءة)،

([1]) انظر إشارة إلى كلام بعضهم في هامش ص١٧٠، من هذا المبحث .

ومده فوق ذات الحرف راجعٌ إلى عربيته الصِرفة من لقائه للهمز أو السكون، على ما هو مقررٌ في علوم العربية، وذا عائدٌ للقراءة أيضاً، وترديده بتأنٍ وتبيينٍ أظهرُ للحروف يرجع إلى الترتيل، وتواترُه بين المسلمين أبين من أن يُتكلم عليه، وتنغيمه على هيئةٍ معينةٍ يرجع إلى التغني والترجيع، وتواتره بين المسلمين معلوم أيضاً، وبقي التحديد الأكثر دقةً من أربع حركات، أو ست، أو نحو ذلك قد يُسلَم بعدم تواتره(١)، ولا ضائر يضير القرآن من عدم تواتره، فمثله كمثل إنسانٍ كُسي أنواع الثياب، فقائلٌ يقول: كمُّ ثوبه إلى رسغه، وآخر يقول بل إلى خنصره، وثالثٌ يقول بل بين ذلك...مع اتفاقهم جميعاً على أنه اكتسى... فأين من يقول بأن الزاعم قِصَرَ الكمِّ قد أنقص في طبيعة الرجل الأصلية؟، وبأن الزاعم طول الكم قد زاد في خلقة الرجل الأصلية؟ فكذلك القرآن لا يضيره تفاوت مراتب المد ونحوها حتى يقال بأن الذي زاد دون تواترٍ قد زاد في كلام الله...ونحو ذلك، ولا يتسع المقام لأكثر من هذا .

٩- **مماثلة قراءة النبي ﷺ لقراءة جبريل عليه السلام**: ويدخل في ذلك مماثلة أصل اللفظ، وهيئة أدائه الداخلية، وذلك تطبيقاً لأمر الله، وتحقيقاً لوعده في قوله ﷻ ﴿**إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ**﴾ فتكفل سبحانه بجمع لفظ القرآن وهيئة أدائه في صدر النبي ﷺ (الحفظ)، وبأن يقرأه بعد كما سمعه من جبريل عليه السلام أصلاً وأداء، والاختلاف كائنٌ في الصوت فحسب، إذ صوت جبريل عليه السلام يختلف عن صوته ﷺ، ونفسُه يخسف عن نَفَسِهِ .

وأُكِد شمولُ هذا الوعد لأصل اللفظ ولأدائه بقوله ﷻ ﴿**ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ**﴾"القيامة /١٩"، **والبيان** هو إظهار الكلمة حرفاً حرفاً، دون دمجٍ، أو تداخل فلذا يُسَمَّى (الإظهار) -وهو حكمٌ من أحكام النون والميم الساكنتين في علم التجويد-

---

(١) وهو ما صرَّح به ابن الجزري -رحمه الله تعالى- في منجد المقرئين ص ٤٣، على الرغم من إنكاره الشديد على ابن الحاجب -رحمه الله تعالى- .

البيان لأن فيه تبيين للنون والحرف الذي بعدها دون إخفاءٍ، أو قلبٍ، أو إدغامٍ، وتقدم الكلام عن ذلك([1]).

والصورة التطبيقية لهذا عبر عنها ابن عباسرضي الله عنه بقوله: (فإذا انطلق جبريلعليه السلام قرأه النبي ﷺ كما قرأه [كما وعده الله]([2]) .

والضمير في قوله **﴿فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ﴾** لجبريلعليه السلام والتقدير: فإذا انتهت قراءة جبريلعليه السلام فأقرأ أنت ، وتقدم تفصيل ذلك في المبحث السابع من هذا الفصل .

١٠- قراءتهﷺ على الناس كما أقرأه جبريل عليه السلام من حيث أصلُ اللفظ وأداؤه: ويختلف عن البند السابق في أنه أخص منه مطلقاً من حيث أنه مأمورٌ بتلاوته على الناس لقولهﷻ **﴿...لأُنْذِرَكُمْ بِهِ...﴾** "الأنعام/١٩"، وقوله: **﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ...﴾** "النمل/٩١"، والسابق أعم من حيث أنه يقرؤه لنفسه أو للناس .

وإنما أُفْرِدت هذه النقطة بالذكر مع دخولها فيما سبق لأهميتها في إحداث اليقين القطعي بحقيقة: أن النبي ﷺ كان يقرأ ألفاظ كما أقرأه جبريل عليه السلام لا يَحْرِمُ منها حرفاً، ولا هيئةً لعموم قول ابن عباسرضي الله عنه :(كما أقرأه)، ولقولهﷻ **﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ...﴾** "يونس/١٥" .

فإذا اجتمع -كما سبق-:

١- الأمر الإلهي الموجب اتباع هيئةٍ معينةٍ للنطق بالقرآن (الأداء)، وهو قولهﷻ ﴿...وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً﴾ "المزمل/٤" ونحوها،

٢- والتطبيق الملائكي (جبريل)عليه السلام لذلك الأمر مبالغة في اتباع تلك الهيئة كما في قولهﷻ ﴿...وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ "الفرقان/٣٢" ([3])،

([1]) انظر: حديث المعاجة في المبحث السادس من هذا الفصل ص١١٣ .

([2]) صحيح البخاري ٦/١، مرجع سابق .

([3]) ويُلاحَظ بعين التأمل أن إيراد هذه الجملة كان أثناء حجاج الخصماء فيه، ليظهر بالغ أهميتها .

٣- **والنص النبوي عليها (اقرأ وارق ورتل)([1])...ونحوه،**

٤- **والتطبيقُ النبويُ لها،**

٥- **ودقة وصف الصحابة لتلك الهيئة،**

٦- **مع تناقل هذه الهيئة عبر الأجيال ...**

كانت النتيجة التلقائية لهذه المقدمات هي: التوقيفية المحضة في نقل هيئة أداء القرآن، كنقل أصل ألفاظه... .

فإذا أُضيف إلى هذا: أن الرسولﷺ كان إذا انطلق جبريل عليه السلام قرأه كما قرأه، وأن الصحابة حفظوه وكتبوه كما أقرأهم الرسولﷺ...وأن حلقات الحفظ هذه قد توالت من الله -جل وعلا- إلى رسوله من أهل السماء عليه السلام إلى رسوله من أهل الأرض ﷺ، ثم إلى صحابة رسوله ﷺ، ثم إلى الأمة باختلاف مكانها وزمانها...بأعلى درجات الحفظ والضبط...كما كان الرسولﷺ يقوم بالعرض اليومي للصحابة عند نزول القرآن، وفي الصلوات الجهرية، وفي نوافله الليلية التي كان يصل وردُه فيها إلى سدس القرآن الكريم في كل ليلة غالباً...فقد ضمن الله ﷻ للقرآن حفظه: كتابةً بالقلم، وأداءً بالصوت الذي حُفِظَتْ حروفه في أدق صفاتها ومخارجها من حيث مقاطعُ الأداء(أماكن الخروج) وما يصاحبه من غنةٍ، أو مدٍ، أو ترقيقٍ، أو تفخيمٍ، أو استعلاءٍ، أو استفالٍ...كما حُفِظَتْ أماكن الوقف والابتداء، والسكتات الواجبة والجائزة... .

فحفظ الله -تعالى ذكره- ألفاظ القرآن في هذه الأمة بالأدوات الواقعية الإنسانية التي تتسم بأعلى قواعد الحفظ، وأدق مقاييس الضبط .

ولا يعترض معترضٌ على هذه النتيجة الحتمية بأنها منخرمةٌ بما يُشاهد من اختلاف أداء القرآن، **لأنه** هذا الاختلاف مرده إلى أمورٍ خارجيةٍ أخرى

([1]) صحيح ابن حبان ٤٣/٣، مرجع سابق؛ إذ مفهومه دال على مراد التقرير، وكأحاديث التغني بالقرآن .

كالاختلاف الفطري في أصوات الناس، والاختلاف النفسي من حيث التذوق لنغمة التصويت، والاختلاف العقلي من حيث تقدير البطء والسرعة... وهذا كله لا يقدح في التوقيف في الأداء، حذوَ التوقيف في الصلاة، إذ لا جدال في أنها عبادةٌ توقيفية، وترى الاختلاف فيها وارداً من حيث البطء والسرعة في أداء أركانها... وما يشبه ذلك مما يرجع إلى البشر .

وهذه، وما سبقها توطئةٌ لإثبات ما هو عند المسلمين بَدَهي من أن هيئة قراءة القرآن صفةٌ ذاتيةٌ للفظ، وليست صفةً عارضة، أو أمراً تتميمياً([1])، كما أن في هذا التقرير إشارةٌ إلى منبع الوهم الزاعم عدم تواتر أوجه الأداء، وهو ما صرح به ابن الحاجب وابن خلدون -رحمهما الله تعالى-([2])...وحسب ذا القول أن يكون مناقضاً للمقتضى اللغوي لمادة

([1]) **فتبيين الحروف هو ما يعبر عنه علماء التجويد بقولهم: إخراج الحرف من مخرجه مع إعطائه حقه ومستحقه، إذ منعه من الصفات الذاتية إعدامٌ لذاته، كمن أراد إخراج الدال غير مجهورة فهو مُخْرِجُها تاءً، ومنعه من الصفات العارضة هضمٌ له وعدم بيانٍ لحقيقته، وإزراءٍ به يستنكره أهل اللغة كإنسانٍ بدون ساترٍ له من ملبس، والإعراب النحوي من صفاته العارضة، فهذا هو المقياس في دحر فكر من توسوس له نفسه التهاون في صفات الحروف العارضة، ومن هاهنا يمكن إرساء قاعدة قوية في منع التطوير المزعوم في الأصوات اللغوية العربية، وذلك لوجوب التزام بيان الحرف في القرآن الكريم على ما تلقاه لاحقٌ من سابق .**

([2]) أما ابن الحاجب: فصرَّح بذلك في مختصر الأصول له، وقد نفى عنه قومٌ ذلك بأن عبارة الاستثناء من التواتر لم تعد في النسخ المشورة من المختصر، وأما ابن خلدون فقد رجع ذلك في المقدمة ص٥٥٢ - تاريخ ابن خلدون - تأليف: عبد الرحمن بن خلدون ت٨٠٨ هـ ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: خليل شحادة -- مراجعة الدكتور: سهيل زكار — دار الفكر بيروت الطبعة الثالثة ١٤١٧هـ —١٩٩٦م: حيث قال: "وقد خالف بعض الناس في تواتر طرقها -يريد القراءات —بأنها عندهم كيفياتٌ للأداء، وهو غير منضبطٍ، وأباه الأكثر وقالوا بتواترها، وقال آخرون بتواتر غير الأداء منها كالمد والتسهيل لعدم الوقوف على كيفيته بالسمع وهو الصحيح" ولعله عنى بالبعض الذين رجَّح كلامهم ابن الحاجب فهو عنه ناقلٌ، ولو نفي التواتر عن الأداء كما قيل، لنفاه عن أصل اللفظ، وهو ما لا يقول به ابن الحاجب، ولا يرضاه، وهو الأصولي المقرئ الكبير؛ إذ الأداء يتضمن النطق بأصل اللفظ (وهذا المسمى مخارج الحروف)، وصفاته الأصلية، ويتضمن الصفات العارضة الناشئة عن الصفات الأصلية، ونفي تواتر الأداء نفي لأصل اللفظ سواءً أُريدَ به المتضَمن الأول أو الثاني، إذ لا يستقيم نفي الصفة العارضة بدون نفي أصلها، ولا تستطيع تصنيف التأني في القراءة صفةً أصلية، فلا جرم أنها إلى الصفات العارضة تنتسب بسببٍ، وأما الأول فأمره بيّنٌ، وقد تقدم في المتن تعليلٌ، والتكرار هنا

الترتيل، ولما تراه من اجتماع الأمة على تفاصيل تطبيق الترتيل، الذي ينصرف مفهومه في أول وهلة إلى الصفات العارضة للقراءة وحروفها .

١١- تكرار المحفوظ: ليرسخ فيه، فقد قال الزمخشري -رحمه الله تعالى- :."فأمر أن يستنصت له، ملقياً إليه بقلبه وسمعه حتى يقضي إليه، ثم يقضيه بالدراسة إلى أن يرسخ فيه"(١)، وهو من معاني في قوله ﷻ **﴿فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ﴾** قال الآلوسي-رحمه الله تعالى-: "اتبع قرآنه بالدرس على معنى كرره حتى يرسخ في ذهنك"(٢)، وأورد ابن جرير(٣)عن ابن عباس رضي الله عنه:"كان لا يفتر من القرآن مخافة أن ينساه، فقال الله ﷻ :**﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ(١٦)إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ﴾**"القيامة/١٦-١٧" أن نجمعه لك**﴿وَقُرْءَانَهُ ﴾** أن نقرئك فلا تنسى"؛ وهذا دالة على تكرار المحفوظ، والمعارضة والمدارسة نموذج للصورة التطبيقية لهذا التكرار .

١٢- تركيز المراجعة في قيام الليل: فقيام الليل له عدة تعلقات من حيث لفظ القرآن الكريم:

أ- هو محل استمداد عون الله، ولذا أُمِرَ النبي ﷺ بقيام الليل ليكون السبيل الذي يستعين به على تلقي هذا القول الثقيل .

ب- جعل قيام الليل محلاً للصورة التطبيقية في مراجعة القرآن الكريم تثبيتاً للألفاظ، وتبييناً للأصوات، ففي قيام الليل تكون "مواطأة القرآن أشد موافقة لسمعه وبصره وقلبه"(٤)، وله بالقرآن تعلقان:

هو في أسلوب طرح الكلام...فكلام ابن الحاجب-رحمه الله تعالى- حال ثبوته عنه، يُشير إلى ما صرَّح به من بعد ابن خلدون من أن المراد هو ما لا يتوقف ضبطه على السمع كمراتب المد .

(١) الكشاف ١٦٥/٤، مرجع سابق، ومثله: أبو السعود ٣٤٠/٥، مرجع سابق .

(٢)روح المعاني ٢٤٤/٢٩، مرجع سابق .

(٣) تفسير الطبري ١٩٠/٢٩، مرجع سابق .

(٤) صحيح البخاري ٣٨٢/١، مرجع سابق، عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، وقال ابن حجر- رحمه الله تعالى-: "وهذا وصله عبد بن حميد من طريق مجاهد" .انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري ٢٣/٣، مرجع سابق .

عامٌ: فهو ﴿**أَشَدُّ وَطْئًا**﴾ أي: "أثبت في الخير"، **وخاصٌ** فهو﴿**وَأَقْوَمُ قِيلاً**﴾ أي:"أبلغ في الحفظ"([1]).

وكونه أبلغ في الحفظ: مجمل فصله الشوكاني بقوله: "﴿**وَأَقْوَمُ قِيلاً**﴾ أي أشد مقالاً، وأثبت قراءةً لحضور القلب فيها، وهدوء الأصوات..." .

ولا يتوقف ذلك عند مجرد الحفظ، بل يتعداه إلى تبيين اللفظ فقد نقل الشوكاني عن قتادة ومجاهد: "أي أصوب للقراءة، وأثبت للقول؛ لأنه زمان التفهم، وقال الكلبي: أبين قولاً بالقرآن"([2]) .

والمقصود أن قيام الليل هو محلٌ لتكون مواطأة القرآن بين القلب واللسان أشد، كما أنه أجمع للتلاوة أي أرسخ للحفظ، ولهذا قالﷻ﴿**هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً**﴾ "المزمل/٦"، أي أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها ...([3]) .

وعلاقة قوله ﷻ: ﴿**إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً**﴾ بما قبلها ﴿**...وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلا(٤)إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلا ثَقِيلا**﴾ "المزمل/٤-٥" أنها تعليلٌ لتخصيص زمن الليل بالقيام فيه، والمراد: إن في قيام الليل تزكيةٌ وتصفيةٌ لسرك، وارتقاءٌ بك إلى المراقي الملكية، فالمعنى: إن صلاة الليل أعود على تذكر القرآن، والسلامة من نسيان بعض الآيات، وأعون على المزيد من التدبر، قال ابن عباسﷺ :"أدن من أن يفقهوا القرآن"، وقال قتادة: "أحفظ للقرآن"، وقال ابن زيد:"أقوم قراءة لفراغه من الدنيا"([4])، **وقد اشتهر حديث حذيفةﷺ في قيامه ﷺ بسورة البقرة وآل عمران والنساء([5]) أنموذجاً لورده ﷺ في المراجعة في قيام الليل .**

([1]) تفسير الطبري ٢٩/ ١٧٠، مرجع سابق .

([2]) فتح القدير ٥/٣٨٨، مرجع سابق، وراجع: تفسير أبي السعود ٥/٤١٢، مرجع سابق .

([3]) انظر: تفسير ابن كثير ٤/٣٧٠، مرجع سابق .

([4]) التحرير والتنوير ٢٩/١٦٣، مرجع سابق، وقال في قوله تعالى﴿**وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً**﴾ متعلقةٌ بقيام الليل أي: رتل قراءتك في القيام، ويجوز أن تكون أمراً مستقلاً متعلقاً بكيفية قراءة القرآن، جرى ذكره بمناسبة قيام الليل، وهذا أولى لأن الصلاة تدخل في ذلك وانظر: البحر المحيط ٨/٣٦٣/ مرجع سابق .

([5])رواه مسلم ٣/٣٤٢، مرجع سابق .

وقد جعل النبيﷺ قيام الليل ورداً للمراجعة اليومية؛ ولذا جعله البحث نموذجاً للوقت النموذجي لها([1])، فقد كان النبي ﷺ يقرأ ما يُلْقَى إليه في الليل أثناء قيامه في الصلاة .

ولمراجعة القرآن في صلاة الليل أثرٌ في تثبيته بل ذلك أحد أهم قواعد حفظه. **وفي موضوع تلقي النبي ﷺ** يوجد دليلان: عامٌ وخاصٌ في مراجعتهﷺ في الليل:

فأما الدليل العام فقد قالﷺ : (إذا قام صاحب القرآن فقرأه بالليل والنهار ذكره، وإن لم يقم به نسيه)([2]) ومن أحق منهﷺ بوصف صاحب القرآن؟ .

وأما الدليل الخاص الذي فيه: أنَّ قيامُه في صلاته كان بما يُلْقَى إليه فما حدثت به عائشة –رضي الله تعالى عنها– أن رسول اللهﷺ قام ليلة من الليالي فقال: (يا عائشة !ذريني

([1]) لا يعني هذا نفي الغايات الشرعية الأخرى لقيام الليل .

([2]) رواه مسلم ٥٣٦/١، مرجع سابق، عن ابن عمر –رضي الله عنهما–، وقوله (لم يقم به) تحتمل معنى قيام الليل، وتحتمل معنى العمل به، وقد قال المباركفوري في معنى قول الصحابي يخاطب رسول الله ﷺ : (أن لا أقوم بها): كما في تحفة الأحوذي ١٥٠/٨: "أي في صلاة الليل"، انظر: (المباركفوري) أبو العُلا محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم، ط ١، ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م، دار الكتب العلمية – بيروت .

ويؤكد هذا المعنى الحديث الذي وردت فيه هذه العبارة ما روى الترمذي ١٥٦/٥ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ بعثاً، وهم نفر فدعاهم رسول الله ﷺ فقال: (ماذا معكم من القرآن ؟) فاستقرأهم، حتى مرَّ على رجلٍ منهم هو من أحدثهم سناً، فقال : (ماذا معك يا فلان ؟) قال: معي كذا، وكذا، وسورة البقرة . قال: (معك سورة البقرة؟) . قال: نعم!. قال: (اذهب، فأنت أميرهم) فقال رجلٌ –هو أشرفهم–: والذي كذا وكذا يا رسول الله !ما منعني أن لا أتعلم القرآن إلا خشيت أن لا أقوم به . قال رسول الله ﷺ: (تعلم القرآن، واقرأه، وارقد، فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه، وقام به كمثل جراب محشو مسكاً تفوح ريحه كل مكان، ومن تعلمه، فرقد وهو في جوفه كمثل جراب وكي ء على مسك) حسنه الترمذي، وضعفه الألباني: وصححه ابن حبان، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على ابن حبان: "رجاله ثقات رجال الصحيح غير عطاء مولى أبي أحمد" .

أتعبد لربي) قلت: والله إني لأحب قربك، وأحب ما يسرك، قالت: فقام فتطهر، ثم قام يصلي، فلم يزل يبكي حتى بلّ الأرض، وجاء بلال يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي، قال: يا رسول الله! تبكي وقد غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: (أفلاأكون عبداً شكوراً ؟ لقد نزلت علي الليلة آيات، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ...**﴾) الآية([1])، ولا يعترض على النصّ بأنه غير صريح في الدلالة على المراد؛ لأن قرائن الحال، واقتران الوصف بالحكم في الحديث مقتضيان المطلوبَ من إيراده، وهو مراجعته لما أُنزِل عليه، والذي أُنزل عليه هنا الآيات العشر من سورة آل عمران .

بل كان يؤكد على المراجعة ببيان وسائل التدارك عند الفوات فعن عبد الرحمن ابن عبد القاري:قال سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ : (من نام عن حزبه، أوعن شيء منه فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنما قرأه من الليل)([2])، وقد شمل قوله (حزبه) الصلاة والقرآن، وهو إلى القرآن أقرب؛ إذ مصطلح الحزب على لسان النبي ﷺ يختص بالقرآن([3]).

كما جعل ﷺ شدة الحض على قيام الليل مع الاهتمام فيه بقراءة القرآن مقترناً ببيان الحد الأدنى للقراءة أمراً لازماً لتكون دافعاً إلى الترقي المستمر في زيادة كمية المقروء كما في قوله ﷺ : (من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين، ومن قام بمائة آية كتب من

([1]) رواه ابن حبان في صحيحه ٣٨٦/٢، مرجع سابق، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٦٨ .

([2]) صحيح مسلم ٥١٥/١، مرجع سابق .

([3]) ففي مسند الإمام أحمد بن حنبل ٩/٤: عن أوس بن حذيفة أن رسول الله قال: (طرأ علي حزب من القرآن، فأردت أن لا أخرج حتى أقضيه) -قال- (فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ حين أصبحنا -قال- قلنا: كيف تُحَزِبون القرآن؟ قالوا: نُحَزِبه ثلاث سور، وخمس سور، وسبع سور، وتسع سور، وإحدى عشرة سورةً، وثلاث عشرة سورةً، وحزبَ المفصل من قاف حتى يختم) . وهو في سنن ابن ماجه ٤٢٧/١ وقال الألباني: ضعيف .

القانتين، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين)([1])، وفي الحديث إشارةٌ برمي الذي لم يقم بعشر آيات بالغفلة، وفي ذلك تهييجٌ نحو القيام، وقراءة هذا المقدار، وما الحكم هنا إلا غير تحريمٍ لترك قيام الليل ما أشبهه بالتحريم .

بل شُرِعت الوسائل البديلة لقيام الليل لمن فتر أو كسل متضمنة الارتباط الدائم بالقرآن، والاستفزاز الشعوري بقيام الليل، وإن لم يقمه فقد قالﷺ :(من قرأ بمائة آية في ليلة كتب له قنوت ليلة)([2])، وسواءً كان معنى الحديث القراءة المجردة، أو القراءة مع قيام الليل الذي أَشْعَرَ به تعدية الفعل بالباء، فإطلاق القراءة فيه كافٍ في الاستدلال على المطلوب .

على أن حرص النبي ﷺ على استذكار القرآن ومراجعته أوضح من أن يُدَلَّل عليه، ولئن كان قد قال في حرفةٍ عادية: (من علم الرمي ثم تركه فليس منا فقد عصى)([3])، لهو قائلٌ ثم فاعلٌ أكثر من ذلك في أصل أصول الشريعة الإسلامية .

١٣- التعاهد السنوي: وذلك بمراجعة القرآن على جبريلعليه السلام سنوياً في كل رمضان، ويأتي تحليل هذا الموقف التعليمي([4])، **وهذا هو الأصل الشرعي المنهجي في العرضة الثانية أو الثالثة** تأكيداً وتثبيتاً للمحفوظ، وهذا التعاهد غير التعاهد الدائم (المراجعة الدائمة)؛ إذ كلامنا عن اتصال الرسول ﷺ التعليمي بجبريلعليه السلام في القرآن الكريم من حيث اللفظ، والمراجعة الدائمة عملٌ ذاتي .

([1]) صحيح ابن حبان ٦/ ٣١٠، مرجع سابق، وصحيح ابن خزيمة ٢/ ١٨١، انظر: (ابن خزيمة) إمام الأئمة أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي ت ٣١١هـ: صحيح ابن خزيمة، مراجعة: د.محمد مصطفى الأعظمي ١٣٩٠هـ-١٩٧٠م، المكتب الإسلامي-بيروت .

([2]) (المقدسي) أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد بن أحمد الحنبلي ت ٦٣٤هـ : الأحاديث المختارة ٨/ ٢٧٨، تحقيق: عبد الملك ابن عبد الله دهيش، ١٤١٠هـ، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة .

([3]) رواه مسلم ٣/ ١٥٢٢، مرجع سابق .

([4]) في المبحث التاسع من هذا الفصل ص١٧٧ .

فإن اعتُرض بأنه: لم يتم عرض الجزء الذي نزل بعد آخر رمضان قبل موت النبي ﷺ؟ .

فالجواب: ليس عدم العلم علماً بالعدم، بل إنّ القواعد العامة للموضوع هي التي تجعل الباحث يميل إلى الحكم بالنفي أو الإثبات عند عدم وجود النص الصريح في مدار النزاع، وما عُرِضَ في خصوص موضوعنا يجعل الناظر فيها يميل إلى ترجيح أن النبي ﷺ قد عَرَض القرآن قبل وفاته، وذلك لما رأيتَه من الاهتمام المؤكّد بذلك من خلال ما سبق، ولقد خرج النبي ﷺ إلى شهداء أحد قبل وفاته فصلى عليهم بأمر ربه([1])، فكيف يكون الأمر له في خصوص القرآن الكريم، على أنه لو لم يتم العرض فلا ضير للتكفل بالحفظ أو لما قاله ابن حجر-رحمه الله تعالى-: "وكأن الذي نزل في تلك الأيام لما كان قليلاً بالنسبة لما تقدم اغْتُفِرَ أمر معارضته"([2]) .

وفي آخر هذا المبحث: فهل أتاك نبأ رسول الله ﷺ إذ يتلقى ألفاظ ألفاظ القرآن الكريم؟، وجبريل عليه السلام إذ يعلمه لفظ القرآن المجيد؟... فيا حاديَ الشوق أشعل سُرَجَ العزيمة...وأمط عنا -بذاك-في الظلماء ذلَ الهزيمة....ويا رسول الله:

قد كنت بدراً ونوراً يُستضاء به ....عليك تَنزِل من ذي العزة الكتبُ

وكان جبريل بالآيات يحضرنا .... فغاب عنا، وكلُ الشوق ينسكبُ

([1]) كما ثبت في البخاري ٥٧٦/١، مرجع سابق .

([2]) فتح الباري ٤٤/٩، مرجع سابق .

المبحث التاسع:
تحليل حديث المدارسة (المعارضة):

قد تكررت -فيما سبق- الإشارة إلى حديث المعارضة، ولأنه يُمَثِّل أنموذج المراجعة السنوية للقرآن الكريم من جهةٍ، ولما يتضمنه من دلالاتٍ متميزةٍ من حيث تلقين جبريل عليه السلام للنبي ﷺ ألفاظ القرآن من جهةٍ أخرى؛ فقد لزم إبرازه بالبحث والتحليل، لذا عُقد هذا المبحث، وينقسم إلى خمسة مطالب:

المطلب الأول: متن الحديث برواياته المختلفة .

المطلب الثاني: الدلالات العامة لحديث المعارضة .

المطلب الثالث: متضَمَّنات المعارضة .

المطلب الرابع: إيرادٌ على ما سبق ودفعه .

المطلب الخامس: المقتضى المنهجي لحديث المعارضة .

المطلب الأول: متن الحديث برواياته المختلفة:

عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل عليه السلام،وكان جبريل عليه السلام يلقاه كل ليلة في [وفي لفظ من] رمضان، حتى ينسلخ، [كان يلقاه في كل سنة في رمضان](١)، يعرض عليه النبي ﷺ (٢) القرآن،[فيدارسه القرآن](٣)،فإذا لقيه جبريل عليه السلام كان أجود بالخير من الريح المرسلة[وروي أبو هريرة وفاطمة -رضي الله تعالى عنهما- عن النبي ﷺ أن جبريل كان يعارضه القرآن](٤)، ووقع عند أحمد في آخر هذا الحديث:لا يسأل شيئاً إلا أعطاه(٥). وحديث فاطمة الذي أشار إليه البخاري هو ما روته عائشة -رضي الله تعالى عنها-

---

(١) صحيح مسلم ١٨٠٣/٤، مرجع سابق .

(٢) ومثل هذا التصريح في مسلم ١٨٠٣/٤، وعند أحمد ٢٣٠/١، مرجع سابق: كان رسول الله ﷺ يعرض الكتاب على جبريل عليه السلام في كل رمضان، فإذا أصبح رسول الله ﷺ من الليلة التي يعرض فيها ما يعرض... .

(٣) ما بين الأقواس ألفاظٌ أخرى للبخاري .

(٤) صحيح البخاري ١١٧٧/٣، مرجع سابق .

(٥) مسند الإمام أحمد ٣٢٦/١، مرجع سابق .

قالت: إنا كنا أزواج النبي ﷺ عنده جميعاً، لم تغادر منا واحدة، فأقبلت فاطمة -عليها السلام-تمشي، ولا والله ما تخفى مشيتها من مشية رسول الله ﷺ، فلما رآها رحب وقال:مرحباً بابنتي، ثم أجلسها عن يمينه، أو عن شماله، ثم سارها فبكت بكاء شديداً، فلما رأى حزنها سارها الثانية، فإذا هي تضحك، فقلت لها أنا من بين نسائه: خصك رسول الله ﷺ بالسر من بيننا، ثم أنت تبكين، فلما قام رسول الله ﷺ سألتها: عم سارك؟، قالت: ما كنت لأفشي على رسول الله ﷺ سره .فلما تُوفي، قلت لها: عزمت عليك بما لي عليك من الحق لما أخبرتني . قالت: أما الآن فنعم، فأخبرتني، قالت: أما حين سارني في الأمر الأول، فإنه أخبرني (أن جبريل عليه السلام كان يعارضه بالقرآن كل سنة مرة، وإنه قد عارضني به العام مرتين، ولا أرى الأجل إلا قد اقترب فاتقي الله، واصبري، فإني نعم السلف أنا لك) قالت: فبكيت بكائي الذي رأيت، فلما رأى جَزَعي سارني الثانية، قال: (يا فاطمة ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين أو سيدة نساء هذه الأمة)([1]).

المطلب الثاني: الدلالات العامة لحديث المعارضة:

والدلالات المأخوذة من هذا الحديث هي:

١- اعتماد مبدأ المدارسة في مفردات التعليم المنهجي لألفاظ القرآن الكريم: فقد تنوعت روايات الحديث في وصف هذا الموقف التعليمي بين جبريل عليه السلام والنبي ﷺ ، فوصفه بعضها بأنه (مدارسة)، وبعضها بأنه (معارضة)، وبعضها (يعرض عليه القرآن)، وبعضها أبهم الفاعل، وصرَّح البعض بأن الفاعل للعرض هو النبي ﷺ، والبعض أن الذي كان يعرض هو جبريل عليه السلام ومنه استنباط الإمام النسائي: أن جبريل عليه السلام هو الذي كان يعرض القرآن على النبي ﷺ ، وهو ما أشار إليه البخاري في قوله: وروى أبو هريرة وفاطمة -رضي الله تعالى عنهما- عن النبي ﷺ أن جبريل عليه السلام كان يعارضه القرآن... **وهذه الأوصاف مستلزمةٌ سبرَ معانيها اللغوية والاصطلاحية،**

([1]) صحيح البخاري، ٥/٢٣١٧، مرجع سابق .

للتمكن من تحليل هذا الموقف التعليمي المتميز، والخروج بنتائج حقيقيةٍ تترتب عليه .

ومن ذلك:

أ- **أن المدارسة تستلزم الفقه الدقيق**، ولا بد من أن يُجْمَع ذاك إلى حسن المعنى وتركيزه، صحةَ اللفظ وعذوبته وقوته، كما جاء عن عبد الملك بن عمير عن قبيصة ابن جابر: (ألا أخبركم عن من صحبت؟! صحبت عمر بن الخطاب، فما رأيت أحداً أفقه في كتاب الله، ولا أحسن **مدارسةً** منه...)([1]). فليس المعنى فقط هو المعتبر في المدارسة، وظاهرٌ أنه لا يستطاع الوصول إليه إلا عبر اللفظ، فإن كان هذا اللفظ هو كلام اللهﷻ كان من البدهي أن لكل حرفٍ فيه دلالته التي لا يقوم غيره فيها مقامه... .

ب- **والمدارسة الرمضانية** هي الأساس الشرعي المنهجي للعرضة الثانية، والثالثة للقرآن الكريم من الطالب على شيخه... **كما هو معمول به عند المسلمين**، تدقيقاً للفظ وتأكيداً للحفظ، وتثبتاً من الأداء .

٢- **التأكيد على الحفظ في حق الرسولﷺ بما ليس بعده**: والمراد بذلك مقتضياته التعليمية في حق الأمة، ذلك أن الله قد تكفل بإقراء النبي ﷺ على هيئة قراءة جبريل عليه السلام لفظاً وأداء أولاً، ثم تكفل بعدم نسيِّه من صدره ثانياً، ثم بحفظ كتابه ثالثاً ... وعلى الرغم من ذلك فقد كانت المعارضة السنوية للقرآن الكريم تأخذ مجراها الدوري، مع جملة تأكيدات فيها على غايتها وفحواها([2])، كتكرار

([1]) (المزي) أبو الحجاج جمال الدين يوسف بن الزكي عبد الرحمن ت ٧٤٢ هـ: تهذيب الكمال ٤٧٢/٢٣، مراجعة: بشار عواد معروف، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، مؤسسة الرسالة -بيروت، وقد رواه البخاري في التاريخ الكبير ٧/ ١٧٥، ومما يلزم إضافته في سياق تقرير المعنى المشار إليه: أن قبيصة قد تأثر بصحبة هؤلاء الأساتذة، فكان كما قال عبد الملك ابن عمير إذا ذكر الفصحاء: "فصحاء الناس ثلاثة: الحسن البصري، وموسى بن طلحة القرشي، وقبيصة بن جابر الأسدي ..." تهذيب الكمال ٤٧٢/٢٣، مرجع سابق .

([2]) ولذا قال ابن حجر -رحمه الله تعالى-: "وفيه استحباب تكثير العبادة في آخر العمر، ومذاكرة الفاضل بالخير والعلم، وإن كان هو لا يخفى عليه ذلك لزيادة التذكرة والاتعاظ، وفيه أن ليل رمضان أفضل من نهاره، وأن المقصود من التلاوة الحضور والفهم، لأن الليل مظنة ذلك لما في النهار من الشواغل والعوارض الدنيوية والدينية ".

المعارضة مرتين في العام الذي توفي فيه، واستمرارها في كل ليلة من شهر رمضان مع أنه كان يمكن الاكتفاء ببعض المجالس سواء كرر جميع القرآن كل ليلة، أو فرقه على الليالي وهو الأظهر وهو ما أكده الإمام النووي -رحمه الله تعالى- في شرحه لهذا الحديث حيث قال: "واستحباب الإكثار من القراءة في رمضان وكونها أفضل من سائر الأذكار؛إذ لو كان الذكر أفضل أو مساوياً لفُعِلا، فإن اعتُرض بأن المقصود تجويد الحفظ، قلنا: الحفظ كان حاصلاً، والزيادة فيه تحصل ببعض المجالس "([1]) .

وهل للاعتكاف علاقة بعرض القرآن ؟ ذاك ما لا يمكن نفيه أو إثباته، ولكن العلاقة طردية بين الاعتكاف وعرض القرآن([2])، ومتضَمَّن الاعتكاف الذي يجعل تلاوة القرآن من أساساته، والانقطاع لله ﷻ من أوصافه الذاتية([3])...قد يوحيان بهذه العلاقة .

٣- تأكيد المعارضة السنوية، وتعويضها عند فواتها لعارض: فقد اختلف في سبب معارضته ﷺ مرتين في العام الذي توفي بعده، ولا شك أن مجرد العلم الإلهي بوفاته سبب كافٍ في التأكيد على أصل أصول الدين، ويجعل ذلك كالمقطوع به استنباطهﷺ حيث قالت ابنته فاطمة: (أخبرني أن جبريل كان يعارضه بالقرآن كل سنة مرة وإنه قد عارضني به العام مرتين ولا أرى الأجل إلا قد اقترب)، لكن هذا لا يفسر اعتكافه مرتين على المستوى ذاته من القوة...وقد عرض ابن حجر-رحمه الله تعالى- اختلاف العلماء في سبب اعتكافه في العام الذي توفي بعده عشرين يوماً فقال: "قيل: السبب في ذلك أنهﷺ علم بانقضاء أجله، فأراد أن يستكثر من أعمال الخير؛ ليبين لأمته الاجتهاد في العمل إذا بلغوا أقصى العمل

([1]) فتح الباري شرح صحيح البخاري ١/٣١، مرجع سابق .

([2]) حيث كان يعرض القرآن مرة، ويعتكف عشرة أيام، فلما عرضه مرتين اعتكف عشرين يوماً...ولقائلٍ أن يقول: ليست هذه العلاقة مؤثرة، بل اتفق الاطراد لعارض .

([3]) حتى أن اعتكاف النبي ﷺ كان تصاحبه شدةٌ في التبتل، قال ابن حجر-رحمه الله تعالى-في الفتح ٤/٢٨٥، مرجع سابق: "وقد روى ابن المنذر عن ابن شهاب أنه كان يقول:عجباً للمسلمين ، تركوا الاعتكاف والنبي ﷺ لم يتركه منذ دخل المدينة حتى قبضه الله "، وقال مالك: " أنه لم يعلم أن أحداً من السلف اعتكف إلا أبا بكر بن عبد الرحمن، وأن تركهم لذلك لما فيه من الشدة" .

ليلقوا الله ﷻ على خير أحوالهم([1])، وقيل: السبب فيه أن جبريل عليه السلام كان يعارضه بالقرآن في كل رمضان مرة، فلما كان العام الذي قُبِضَ فيه عارضه به مرتين؛ فلذلك اعتكف قدر ما كان يعتكف مرتين، ويؤيده أن عند ابن ماجة: (وكان يعرض عليه القرآن في كل عام مرةً، فلما كان العام الذي قبض فيه عرضه عليه مرتين)([2])، وقال ابن العربي: يحتمل أن يكون سببُ ذلك أنه لما ترك الاعتكاف في العشر الأخير بسبب ما وقع من أزواجه، واعتكف بدله عشراً من شوال –اعتكف في العام الذي يليه عشرين ليتحقق قضاء العشر في رمضان انتهى، وأقوى من ذلك أنه إنما اعتكف في ذلك العام عشرين لأنه كان العام الذي قبله مسافراً، ويدل لذلك ما أخرجه النسائي وللفظ له وأبو داود وصححه ابن حبان وغيره من حديث بن أبي بن كعب رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان، فسافر عاماً فلم يعتكف فلما كان العام المقبل اعتكف عشرين، وقال في موضع آخر: ويحتمل أيضاً أن يكون السر في ذلك أن رمضان من السنة الأولى لم يقع فيه مدارسة لوقوع ابتداء النزول في رمضان ثم فتر الوحي، ثم تتابع، فوقعت المدارسة في السنة الأخيرة مرتين ليستوي عدد السنين والعرض، ويحتمل تعدد هذه القصة بتعدد السبب، فيكون مرة بسبب ترك الاعتكاف لعذر السفر، ومرة بسبب عوض القرآن مرتين"([3]) .

وقد ظهر أن من بين الأقوال الخمسة المذكورة في التعليل لاعتكافه عشرين يوماً قولان يرجعان إلى علاقة الاعتكاف بالقرآن الكريم .

([1]) يُضَعِّف هذا أنه أخبر عن نفسه بعدم العلم باقتراب أجله إلا بعد أن رأى جبريل عليه السلام عارضه القرآن مرتين، وذاك كائنٌ في منتهى رمضان فكذلك الاعتكاف فيقوى من هنا أن يكون للاعتكاف علاقة في معارضة القرآن، ولكن يقوي الاستنباط الأول النعي العام له ﷺ في سورة النصر وكانت بعد فتح مكة، فلقائل ذاك القول أن يقول: استكثر من الخير بعدما نزلت عليه هذه السورة ومن ذلك الاعتكاف، وأما المعارضة فكانت تحديداً أدق من النعي العام .

([2]) سنن ابن ماجة ٢/٣٤٥، مرجع سابق .

([3]) فتح الباري ٤/٢٨٥، مرجع سابق .

وهل كانت المعارضة تتم قبل أن يُفرض صيام رمضان ؟ الظاهر من قول ابن عباس رضي الله عنهما: (وكان جبريل عليه السلام يلقاه كل ليلةٍ في رمضان حتى ينسلخ [كان يلقاه في كل سنة في رمضان])([1]) –أن المعارضة كانت تتم في كل رمضان حتى قبل أن يفرض صيامه، ويقوي ذلك رواية (من)؛ فإن (من) هاهنا إما لابتداء الغاية الزمانية على قول من يجيزها أي من ابتداء شهر رمضان فيه بعد نبوته إلى آخر رمضان قبل وفاته، وفيه إدماج معنى الحرفين في التقدير، أو أن (من) لبيان الجنس فيصدق على جميع رمضانات النبوة([2]).

قال ابن حجر-رحمه الله تعالى-: "وهذا ظاهرٌ في أنه كان يلقاه كذلك في كل رمضان منذ أنزل عليه القرآن، ولا يختص ذلك برمضانات الهجرة، وإن كان صيام شهر رمضان إنما فُرِض بعد الهجرة؛ لأنه كان يسمى رمضان قبل أن يفرض صيامه"([3]).

٤- التركيز في عنصر الوقت لتثبيت ومراجعة لفظ القرآن الكريم: وذلك باعتماد الدرس الليلي: إذ كانت المعارضة تتم ليلاً، ليتم الوصول إلى الكمال في الإحاطة بالدرس القرآني إذ يتم حفظ، أو مراجعة ما يراد تثبيته من الليل، ثم يعقبه نومٌ، ثم تجري مراجعته سحراً أو بكرة؛ لأنه إذا تساوى زمن الحفظ واليقظة بين التعلم والتذكر؛ فإن زمن النوم أقل ضرراً على الحفظ من زمن اليقظة؛ لعدم التعرض لخبراتٍ جديدة خلال النوم يحصل بسببها النسيان؛ فإن النسيان إنما يحدث من جراء حصول خبراتٍ جديدة، يفسح لها الدماغ مجالاً، فيطمس أشياء قبلها([4])، ولذا قال ابن حجر-رحمه الله تعالى: "اختيار الليل لأن المقصود من التلاوة الحضور والفهم، لأن الليل مظنة ذلك، لما في النهار من الشواغل والعوارض الدنيوية والدينية". وقد مر نحو هذا في فوائد آيات المزمل([5]) .

([1]) صحيح مسلم٤/١٨٠٣، مرجع سابق .

([2]) انظر: في معاني (من): مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ١/٣١٩، مرجع سابق .

([3]) فتح الباري ٤/٢٨٥، مرجع سابق .

([4]) المهارات الدراسية ص١٢٤ بواسطة: مقال ظاهرة النسيان، مجلة البيان، عدد ١٠٥، مرجع سابق .

([5]) تكرر في أكثر من موضع ، انظر (مثلاً): ص١٧٢ من هذا البحث .

٥- **التركيز في عنصر الوقت:اعتماد رمضان زماناً للمعارضة**، ولا يخفى مدى ملاءمة ذلك .

٦- **التركيز في عنصر الوقت: تعويض المعارضة عند فواتها لعارض**: وتقدم([1])، وتجدر الإشارة إلى استبعاد الغرض التعبدي المحض من تعويض المعارضة؛ لأن الأجر يُكْتَبُ لدائم العمل إن حجب عنه لعارضٍ معتبرٍ كسفرٍ أو مرض على ما تقرر في التقعيد الأصولي([2])، فقد ثبت النص بذلك فعن أبي بردة -واصطحب هو ويزيد بن أبي كبشة- في سفرٍ، فكان يزيد يصوم في السفر، فقال له أبو بردة: سمعت أبا موسى-يعني أباه هو الأشعري-ﷺ مراراً يقول: قال رسول الله ﷺ : (إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً)([3]).

وكل ما سبق يجعل الحكم بإلزامية المراجعة السنوية على النبي ﷺ أمراً بالغ الوضوح .

ويجب إبراز ملاحظةٍ هي: أن ما تفرع عما تقرر أعلاه من تعويض المعارضة تأسس على تحتم المراجعة عليه ﷺ ، ولقائلٍ أن يقول: لا نُسَلِّمُ تعويض المعارضة، بل ما يُحْجَبُ جبريل عليه السلام عن معارضة النبي ﷺ القرآن في سفره، وكونه لم يُنْقَل فلأن عدم العلم ليس علماً بالعدم، ويكفي قرائن الأحوال الأخرى، أما المعارضة مرتين في آخر رمضان فتأكيداً على القرآن الكريم لا للتعويض، وهو الذي يظهر من الحديث .

٧- **تثبيت الحفظ بالعمل، والعبادات التي تباركه**: ويُلْمَحُ هذا من الحالة النفسية التي تتعاظم عندها الطاعة بعد تلقي القرآن الكريم أو مدارسته مع جبريل عليه السلام، وتلك مسألةٌ واضحةٌ في نص الحديث:

([1]) انظر ص١٧٤ من هذا البحث .

([2]) انظر: الموافقات ٣٤٢/١، مرجع سابق .

([3])صحيح البخاري ١٠٩٢/٣، مرجع سابق .

في زيادة الإنفاق من حيث الشكر،

وقيام الليل من حيث المراجعة والذكر،

وتمام القول أن خلقه القرآن، وذاك كافٍ في الإقامة عليه، والحفاظ على نصه؛ إذ قد استحالت الألفاظ بمعانيها إلى جسدٍ متحرك، قال ابن حجر -رحمه الله تعالى- في شرح هذا الحديث:"قيل الحكمة فيه: أن مدارسة القرآن تجدد له العهد بمزيد غنى النفس، والغنى سبب الجود، والجود في الشرع إعطاء ما ينبغي لمن ينبغي، وهو أعم من الصدقة، وأيضاً فرمضان موسم الخيرات، لأن نعم الله على عباده فيه زائدة على غيره فكان النبي ﷺ يؤثر متابعة سنة الله في عباده فبمجموع ما ذكر من الوقت، والمنزول به، والنازل، والمذاكرة حصل المزيد في الجود والعلم عن الله تعالى"([1]) .

ففي هذا الحديث أن مداومة التلاوة توجب زيادة الخير([2]).

المطلب الثالث: متضَمَّنات المعارضة: تتضمن المعارضة بين جبريل عليه السلام والنبي ﷺ المفاهيم التالية:

١- **الإراءة:** إذ: "عرض الشيء عليه يعرضه عرضةً أراه إياه"([3])... فعَرْضُ النبي ﷺ القرآن على جبريل عليه السلام يتضمن نظر جبريل عليه السلام في لفظ النبي ﷺ وأدائه تصويباً، وتفهيماً، وتعبداً، وعرض جبريل عليه السلام يتضمن نظر النبي ﷺ في لفظ جبريل عليه السلام تعلماً، وتفهماً، وتعبداً، إذ كلٌ منهما يُرِي الآخر لفظه، وأداءه، ويحتمل أيضاً: ومعناه، ولذا جاء في مادة عرض: "وعرضت الكتاب، وعرضت الجند عرض العين إذا أمررتهم عليك، ونظرت في حالهم"([4]) .

([1]) فتح الباري ١/٣١، مرجع سابق .

([2]) انظر: فتح الباري ١/٤٦، مرجع سابق .

([3]) لسان العرب ٩/١٣٧، مرجع سابق .

([4]) لسان العرب ٩/١٣٨، مرجع سابق .

٢- **المقابلة:** من قولهم عارض الكتاب بالكتاب قابله به([1])، ويشترط أن يكون ثَـمَّ أصلٌ مقابَلٌ عليه، وفرعٌ مقابَلٌ به، فيظهر من ذلك أرقى ما يمكن أن يصل إليه التدقيق، مما هو خارجٌ عن نطاق البشر في مقابلة حفظ رسول اللهﷺ على ما أُمِر جبريلعليه السلام بحفظه من ربه، وأهم صفةٍ ذاتيةٍ لجبريلعليه السلام عند نزوله من السماء أنه ما ينزله ربهﷻ إلا بالحق([2]) .

٣- **الظهور:** ففي مختار الصحاح: "عرض له كذا أي ظهر، وعرضته له أظهرته له وأبرزته إليه"([3])...فإظهار القرآن، وإبرازه من النبي ﷺ لجبريلعليه السلام، والعكس يعني إظهار ألفاظ القرآن لفظاً لفظاً من الشيخ لتلميذه ومن التلميذ على([4]) شيخه، ويؤكد هذا العرض الدقيق ما جاء في معنى مادة عرض: "عرض الجند إذا أمرهم عليه ونظر في حالهم"([5])، وهذه غايةٌ في الدقة في وصف تثبيت ألفاظ القرآن الكريم في قلب النبيﷺ، ولا يَرِدُ على هذا التقرير احتمالية أن يكون ما كان يعرضه الرسولﷺ، أو ما كان يعرض عليه هو معاني القرآن وأمور الشريعة؛ إذ لو كان الأمر كذلك لقيل يعرض عليه الشريعة أو نحوها من العبارات، ولا يخصص القرآن بالذكر .

فإن اعتُرض بأن: القرآن هو الشريعة كلها نصاً أو تضمناً، فعبر به في الحديث عنها، فالمعروض هو أحكام الشريعة لا ألفاظ القرآن .

([1]) مختار الصحاح ص٢٧٠، مرجع سابق، النهاية في غريب الأثر ١٣٣/٣، مرجع سابق

([2]) من قوله ﷻ ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ﴾"الحجر/٨"، بل إن مجرد النزول لا يكون إلا بأمر من الله، لقوله: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ "مريم/٦٤"، وليس للملك الاجتهاد في إنشاء أمر، أو تنفيذه كما في قوله ﷻ: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ "الأنبياء /٢٧"، فالحق صفة ذاتية في النزول والنازل والمنزَل به، فلا مس من باطل يعتريه، ولا اجتهاد من مخلوق يأتيه .

([3]) مختار الصحاح ١٧٨، مرجع سابق .

([4]) تضمن الفعل إظهار الطالب ما عنده معنى التصويب على ما عند الشيخ، لذا عُديَ فعُدي بـ(على) .

([5]) لسان العرب ١٣٨/٩، مرجع سابق .

فالجواب: الدليل صحيحٌ، والاستدلال غير صحيحٍ؛ لأن تخصيص القرآن بالذكر في جميع الروايات يدل على اقتصار الكلام عليه، ولو أراد الكلام عن الشريعة أو الدين ونحوها لما عدل عن لفظها أو ما يدل عليه كما في قوله ﷻ **﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا...﴾** "الجاثية /١٨"، وكما في قول النبي ﷺ (هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم)، لم يقل قرآنكم...فتقرر بهذا أنه أراد لفظ القرآن بخصوص مفهومه .

ويمكن القول على طريقة السبر والتقسيم الأصولية:

إما أن يكون المعروض هو ألفاظ القرآن، وإما معانيه، وإما شيءٌ آخر، ولا جائزٌ أن يكون شيئاً آخر، لأن الكلام على القرآن، ولا جائزٌ أن يكون معاني القرآن لأنه لا يطلق عليها قرآنٌ عُرْفاً، فتعين أن المعروض هو ألفاظ القرآن .

فإن اعتُرض بالقول: فهل معنى ذلك أن النبي ﷺ لم يكن يعرض معانيه على جبريل عليه السلام؟ .

فالجواب: بل يحتمل أنه كان يعرضها، ولكن دلالة الحديث على عرضها بالتبع أو بالإشارة، لا بالقصد الأصلي...**ولقد تمسك المسلمون بذلك في ظاهرة مذهلة تقدم التواتر العملي والعلمي المفيد للعلم الضروري في أن المعروض كان في المقام الأول هو ألفاظ القرآن**(١)، وذلك كتمسكهم بشعائر الإسلام الضرورية كرمي الجمار على الرغم من آحادية نصوصها...فتقرر أن المعروض هو ألفاظ القرآن، وذاك مؤشرٌ على مقدار الحراسة التي كانت تحف ألفاظه .

فإن اعتُرض بأن: المعروض إنما هو القرآن من حيث النسخ وعدمه(٢) ويقويه حديث ابن عباس رضي الله عنهما، **فالجواب:** ذاك بعض المعروض لا كله عند التنزل في إثباته...

---

(١) ويمكنك استخدام أسلوب الأصوليين: تخريج المناط ثم تنقيحه للوصول إلى هذه النتيجة .

(٢) على قول من يثبت النسخ .

وإلا فمن ذا يعقل أن يعرض النبي ﷺ آياتٍ مبتورةً على جبريل عليه السلام هي الناسخة، دون عرض مواضعها وسورها ؟ على أن تصريح الصحابة، بأن النبي ﷺ عرض القرآن مرتين في العام الذي توفي بعده واضح في عرضه القرآن كله لا بعضه من أوله إلى آخره... **ولا يعرف للعرض معنى غير هذا عند إطلاقه، وأجيال المسلمين تتوارث هذا المعنى فهماً وتطبيقاً، ولينبئهم بعلمٍ زاعمٌ غير ذلك .**

٤- **العَرَضية اللفظية:** إذ إن استخدام لفظة يعرض في أغلب الروايات عند الراوي الواصف لما حدث، ثم مجيئها على لسان النبي ﷺ (١) دالٌ على فحواها، وهو عرض الألفاظ واستعراضها، ومعلومٌ أن العرض ضد الطول(٢)...فهل يكون أثر إيقاع هذه اللفظة الدقيقة الوصف إلا عرض الألفاظ واحداً واحداً، واقتضاء لفظة العرض سبر الجوانب الداخلية في اللفظة أداءٌ ومعنى ؟ .

فيعرض "من العرض وهو بفتح العين وسكون الراء، أي يقرأ، والمراد يستعرضه ما أقرأه إياه"(٣) بل قد صرح بعض شراح الحديث أثناء شرحهم لحديث المعالجة بأن العرضية تشمل الحروف حرفاً حرفاً، قال السندي -رحمه الله تعالى-:" يحرك شفتيه أي لكل حرفٍ عقب سماعه من جبريل عليه السلام"(٤).

---

(١) راجع متن الحديث في المطلب الأول من هذا المبحث ص١٧٧.

(٢) لسان العرب ١٣٧/٩، مرجع سابق، مختار الصحاح ١٧٨، مرجع سابق، وفيه: "وعَرَضَ الشيء فأَعْرَضَ، أي أظهره فظهرن فهو كقولهم كبَّه فأكبَّ، وهو من النوادر وقوله ﷻ ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا...﴾ "الكهف/ ١٠٠" أي أبرزناها حتى نظروا إليها، فأَعْرَضَتْ هي أي استبانت وظهرت، ورآه في عُرْض الناس أيضاً أي فيما بينهم، وفلانٌ من عُرْض الناس أي من العامة، وفلان عُرْضَةٌ للناس أي لا يزالون يقعون فيه، وجعلت فلاناً عرضة لكذا أي نصبته له، وقوله ﷻ ﴿وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ...﴾ "البقرة/٢٢٤" أي نصباً، ونظر إليه من عُرْضٍ" وهذا كله مقررٌ مبدأ (العرضية اللفظية)، والقصد من استخدام هذه اللفظة لبيان جعل ألفاظ القرآن عرضة للمقابلة والإظهار في (عُرْض) الألفاظ أي فيما بينها من (عُرْض) الألفاظ أي من عامتها .

(٣) فتح الباري ٤٣/٩، مرجع سابق .

(٤) حاشية السندي ٣٤/٢، مرجع سابق .

ولا يُعترض بأن هذه بديهة! وتحصيل حاصل، إذ لا يمكن عرض الألفاظ دون حروفها؛ **لأن** التصريح بمتابعة الحروف دليلٌ على شدة الاعتناء بها، وفيه ردٌ على زاعمٍ التكلف في حق من يخوض غمار علم الصوتيات، على أنه قد يُعْنى بالحرف غير ذلك، وهو اللفظ فيدخل ما ذكر ضمناً .

ومما جاء دالاً على أن لفظة (يعرض) تتضمن سبر الجوانب الداخلية قول النبي ﷺ: (لئن كنت أقصرت الخطبة، فقد أعرضت المسألة)([1]). قال ابن منظور: "أي جئت بالمسألة واسعةً كبيرةً"([2])، وذاك بما تضمنته جوانبها الداخلية من معنى، ولذا يقال فيمن يطيل العبارات أي الألفاظ الخارجية: أطلت الخطبة، ولا يقال أعرضت... .

فإن اعتُرض بالقول: ذاك ما نبغ! فالمعروض-على ذلك-هو المعنى لا اللفظ، **فالجواب:** أما تنزلاً فليس أحدهما بأجلى من الآخر في الدخول الأولي في اللفظة، وأما حقيقةً فإن دخول الأداء الداخلي للفظ أقرب، وأسرع تبادراً إلى الذهن([3])من دخول المعنى في العرض، وهو المستخدم اصطلاحاً في سائر العلوم، وهذا من نوادر اصطلاحات

([1]) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ٢/٩٨، مرجع سابق: عن البراء بن عازب -رضي الله تعالى عنه - قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! علمني عملاً يدخلني الجنة . قال: (لئن كنت أقصرت الخطبة، فقد أعرضت المسألة: أعتق النسمة، وفك الرقبة) قال: أو ليستا بواحدة ؟ قال: (لا عتق النسمة أن تفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعطي في ثمنها، والمنحة الوكوف، والفيء على ذي الرحم القاطع، فإن لم تطق ذلك، فأطعم الجائع، واسق الظمآن، ومر بالمعروف، وانه عن المنكر، فإن لم تطق ذلك، فكف لسانك إلا من خير).

وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على ابن حبان: إسناده صحيح، وهو في مستدرك الحاكم وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه، قال الذهبي في التلخيص(لمستدرك الحاكم): صحيح .

([2]) لسان العرب ٩/١٣٧، مرجع سابق، وفي النهاية ٣/ ٣٢٣: "ومنه الحديث (فإذا عُرْضُ وجْهِه مُنْسَح) أي جانبُه" .

([3]) فمن اشتقاقات عرض كما في مختار الصحاح ص١٧٨، مرجع سابق: "والعِرْضُ أيضا الجسد، وفي صفة أهل الجنة (إنما هو عَرَقٌ يسيل من أعْرَاضِهم) أي من أجسادهم" وقد سمى المناطقة وعلماء الكلام العرض في مقابلة الجوهر، وهذا قريبٌ في مقارنته باللفظ والمعنى .

العلوم الإسلامية، وقد قال ابن الأثير في معنى حديث جبريل عليه السلام:" أي كان يدارسه جميع ما نزل من القرآن، من المعارضة المقابلة "([1]) .

وما أسهل تصور هذا لكل مسلم يقرأ القرآن الكريم؛ **إذ ما زال عرض الألفاظ القرآنية هو لب عملية تعليم القرآن الكريم تتواتر بالمعنى الاصطلاحي واللغوي في جميع الأمصار كما هي في سائر الأعصار([2]).**

٥- المعارضة هي الغاية في تحقيق اللفظ والتثبت منه: فالعرض هو قراءة التلميذ على شيخه، ويقابله السماع وهو قراءة الشيخ وسماع تلميذه منه، وقد يستعمل أحدهما في معنى الآخر، والقراءة أعم منهما، ولذا بوب البخاري:"باب القراءة والعرض على المحدث"([3]) ... قال ابن حجر:" إنما غاير بينهما بالعطف لما بينهما من العموم والخصوص، لأن الطالب إذا قرأ كان أعم من العرض وغيره، ولا يقع العرض إلا بالقراءة؛ لأن العرض عبارة عما يعارض به الطالب أصل شيخه معه، أو مع غيره بحضرته فهو أخص من القراءة " ...([4])، وهذا معناه بالمفهوم الحديثي، ولا بد فيه من القراءة، فلا تسمى المناولة([5]) عرضاً إلا تقييداً .

وقد ذكر العلماء الاختلاف بين العرض والسماع من حيث الأفضلية في التحقيق العلمي للنص: على ثلاثة أقوال:

([1]) النهاية في غريب الأثر ٣/٣٢٤، مرجع سابق .

([2]) قال ابن حجر-رحمه الله تعالى- في فوائد عرض القرآن في رمضان بين جبريل عليه السلام والنبي ﷺ:"وفي ذلك حكمتان: إحداهما تعاهده، والأخرى تبقية ما لم ينسخ منه ورفع ما نسخ، فكان رمضان ظرفاً لإنزاله جملة وتفصيلاً وعرضاً وأحكاماً".

([3]) صحيح البخاري ١/٦٠، مرجع سابق .

([4]) فتح الباري ١/١٥٠، مرجع سابق .

([5]) هي أن يناول الشيخ كتابه الأصل لطالبه، ويجيزه فيه...على تفصيلٍ في ذلك، انظر: فتح الباري ١/١٥٠، مرجع سابق، تدريب الراوي ٢/١٧٠، مرجع سابق .

الأول وهو المشهور: الذي عليه الجمهور أن السماع من لفظ الشيخ أرفع رتبةً من القراءة عليه ما لم يعرض عارضٌ يصير القراءة عليه أولى، ومن ثم كان السماع من لفظه في الإملاء أرفع الدرجات لما يلزم منه من تحرز الشيخ والطالب .

والثاني: القراءة على الشيخ أرفع من السماع من لفظه، ونقله الدارقطني في غرائب مالك عنه، ونقله الخطيب بأسانيد صحيحة عن شعبة وابن أبي ذئب وغيرهما، واعللوا ذلك: بأن الشيخ لو سها لم يتهيأ للطالب الرد عليه، وعن أبي عبيد قال: القراءة علي أثبت وأفهم لي من أن أتولى القراءة أنا([1]).

والثالث: وهو المعروف عن مالك وعن سفيان الثوري: كلاهما سواء، وروى البخاري معلقاً عن الحسن البصري: "ما أبالي قرأت عليك، أو قرأت علي"([2]).

وهذا كله في الحديث، **وأما القرآن** فإن قراءة الطالب على شيخه (العرض) هو الأصل، وهو المعروف عن السلف كما هو المعمول به إلى الآن، ولذا احتج مالك على من لم يُجْز العرض في الحديث بجوازه في تلاوة القرآن "فيما رواه الخطيب في الكفاية من طريق ابن وهب قال: سمعت مالكاً، وسئل عن الكتب التي تعرض عليه: أيقول الرجل حدثني ؟ قال: (نعم! كذلك القرآن، أليس الرجل يقرأ على الرجل فيقول: أقرأني فلان؟)، وروى الحاكم في علوم الحديث من طريق مطرف قال: صحبت مالكاً سبع عشرة سنة، فما رأيته قرأ الموطأ على أحد، بل يقرأون عليه -قال-: وسمعته يأبى أشد الإباء على من يقول: لا يجزيه إلا السماع من لفظ الشيخ، ويقول: كيف لا يجزيك هذا في الحديث، ويجزيك في القرآن، والقرآن أعظم ؟"([3]) .

وأما معارضة النبي ﷺ ألفاظ القرآن على جبريل عليه السلام فقد اتسمت بسمتين:

([1]) انظر: فتح الباري ١/١٣٥، مرجع سابق .

([2]) الأثر: رواه البخاري ١/ ٣٥، وانظر: فتح الباري ١/١٥٠، مرجع سابق .

(٣) انظر: فتح الباري ١/١٥٢، مرجع سابق .

السمة الأولى: أنها أتت بعد خطوات الحفظ التي أولها خطوات التلقين...**والمقتضى المنهجي لذلك** جعل المعارضة مرتبة تالية للمتقنين لتأكيد الحفظ، وتثبيت مخارج الحروف، والتأكد من وجوه الأداء، وبقاء كل ذلك على الدوام دون تطرق خللٍ له بفعل الأمد، فالمعارضة هي غاية التحقيق .

والسمة الثانية: أنها جمعت بين السماع والعرض، فأزالت قوادح كل طريقةٍ على حدة:

أما **العرض** (من النبي ﷺ على جبريل عليه السلام عرض الطالب على شيخه) : فقد جاء في رواية البخاري: (يعرض عليه النبيﷺ) وعليها أغلب الروايات .

وأما **السماع** (من النبي ﷺ لجبريل عليه السلام سماع الطالب لشيخه) : فقد جاءت بقية الروايات مبهمة فاحتملت العرض والسماع، وتأكد ذلك بروايات المفاعلة (يعارض، يدارس ونحوها)، والمفاعلة لا تكون إلا من طرفين غالباً(١)، ووردت روايات مصرحة بالسماع، منها ما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (كان يعرض على النبيﷺ القرآن كل عامٍ مرة، فعرض عليه مرتين في العام الذي قبض فيه، وكان يعتكف كل عام عشراً فاعتكف عشرين في العام الذي قبض فيه)(٢) .

ويزيد الأمر تأكيداً أن القراء والمحدثين لا يستخدمون إلا لفظ (يعرض) للتعبير عن المراد لتصل أعلى درجات الاحتياط في نقل ألفاظ القرآن الكريم، وذا ما فهمه الإمام النسائي فبوب في سننه الكبرى: "باب عرض جبريل عليه السلام القرآن"(٣)، ومن قبله الإمام

---

(١) وقد تستخدم في فاعل واحد مثل عاقب وداوى وسافر ...ولكن هذا استثناء، وذاك أصل .

(٢) صحيح البخاري ٤/١٩١١، مرجع سابق، وعند الإسماعيلي في مستخرجه على البخاري بلفظ: "كان جبريل عليه السلام يعرض على النبيﷺ القرآن في كل رمضان".

(٣) ورواية صحيح ابن خزيمة ٣/ ١٩٣، مرجع سابق، فيها إجمال يؤيد هذا الاستنتاج، ففيها: (يأتيه جبريل فيعرض عليه القرآن)،...فيستأنس بذلك على المطلوب، ويصير هذا في حيز الثبات بحديث عائشة -رضي الله تعالى عنها -عن فاطمة في المعارضة، حيث قالت: (إن جبريل كان يعارضه بالقرآن كل سنة مرة، وإنه قد عارضني به مرتين) قال ابن

البخاري حيث بوب: "باب كان جبريلﷺ يعرض القرآن على النبيﷺ"([1]) .

وينبغي أن يلاحظ أنه لم يوجد مثل هذا (العرض أكثر من مرة) في الأساليب العلمية التعليمية التي تتبع في ديار المسلمين إلا في خصوص مادة القرآن الكريم، وكان ذلك مقتضى منهجياً من مقتضيات هذه الطريقة التي اتبعها النبي ﷺ في تعلمه على يد جبريلﷺ ، ووجودها في بقية العلوم الشرعية مقارنة بالقرآن الكريم في حكم النادر .

٦- عرض القرآن بالحروف المأذون بالقراءة بها([2]): إذ قد حُسِمَ أمر عرضه للقرآن كله (لكل ما نزل منه) في كل رمضان بحديث العرضتين الثابت عن ابن عباس، وفاطمة، وأبي هريرةرضي الله عنهم رضي الله تعالى عنهم، وفي ذلك دلالة على أمرين:

حجر-رحمه الله تعالى- في فتح الباري (٩/ ٤٣): "والمعارضة مفاعلة من الجانبين، كأن كلاً منهما كان تارة يقرأ والآخر يستمع" .

([1]) صحيح البخاري ٤/١٩١١، مرجع سابق، وهو ما رجحه ابن حجر-رحمه الله تعالى-فقال: "فيحمل على أن كلاً منهما كان يعرض على الآخر".

([2]) لا يمكن لنطاق البحث أن يتوسع في شرح مدلول حديث الأحرف السبعة؛ ولكن يقال على سبيل الإجمال: محصِّل ما ورد في هذا الموضوع من أقوال يرجع إلى: أن المراد من الأحرف السبعة من حيث العموم ومراد الحديث، لا من حيث التحديد هو "ما يشمل اختلاف اللهجات، وتباين مستويات الأداء الناشئة عن اختلاف الألسن، وتفاوت التعليم، وكذلك ما يشمل اختلاف بعض الألفاظ، وترتيب الجمل، بما لا يتغير به المعنى المراد "، أو يتغير المعنى بما لا يتضاد به المعنيان الواردان في القراءتين، ويكون الجميع مراداً، دون تكرار للآية، أو تطويلٍ للمصحف، وفي ذلك تيسير ظاهر، "وهذا دون محاولة حصر تلك الوجوه في سبع لغات، أو وجوه من الخلاف، ويظل معنى الحديث بعد ذلك يشير إلى الرخصة التي جاءت تيسيراً وحلاً لمشكلة واجهت الجماعة المسلمة، دون تحديد لأبعاد تلك الرخصة، لكنها لا تخرج عن إطار وجوه القراءات المروية " .

وما بين علامتي التنصيص الأوليين هو من كلام الدكتور عبد الصبور شاهين، انظر: تاريخ القرآن ٦١، دار القلم ١٩٦٦م، وما بين علامتي التنصيص الأخريين هو من كلام غانم قدوري الحمد، انظر: رسم المصحف ١٤٤، مرجع سابق، وانظر أيضاً: (الباقلاني) محمد بن الطيب ت ٤٠٣هـ: نُكت الانتصار لنقل القرآن، تحقيق د. محمد زغلول سلام، الناشر: منشأة المعارف بالإسكندرية، الطبعة بدون لكل ما سبق .

أنه ﷺ كان يعرض كل ما نزل، وأنه كان يقسم ذلك العروض على ليالي رمضان([1])، ويدل لذلك حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (أقرأني جبريل على حرف فلم أزل أستزيده حتى انتهى إلى سبعة أحرف)([2]).

كما لم تُبْقِ روايات العرض مجالاً لما احتمله ابن حجر-رحمه الله تعالى-([3]) من أن العرض محتملٌ أن يقسم ما نزل من القرآن في كل سنة على ليالي رمضان؛ إن أراد به أنه لا يقرأ إلا ما نزل في تلك السنة، أما إن أراد به أنه يخصص لكل ما نزل ليلة فذاك أبعد من حيث زيادة عدد الليالي على عدد سنوات النزول، ومن حيث أن أهداف العرض تأكيد تأليف آياته على ما أراد الله ﷻ، لا على ترتيب نزولها، وهما مختلفان كما هو معلوم...فيظل احتمالاً بعيداً، وإن افترض...وبذا يُحْسَمُ أمر عرضه ﷺ لكل ما نزل من القرآن([4]) .

وبقي أمر عرضه القرآن بجميع حروفه المأذون في القراءة بها فهل كانت العرضة كذلك؟ والجواب: لا نص في ذلك، بيد أن المؤشرات العامة تجعل ذلك محتَمَلاً احتمالاً راجحاً، لأنه كان ﷺ يقول للمختلفين في القراءة: (أقرأني جبريل)([5])، أو (هكذا أُنزلت)([6]) قال ابن حجر-رحمه الله تعالى-: "ولعله كان يعيد ذلك الجزء مراراً، بحسب تعدد الحروف المأذون في قراءتها، ولتستوعب بركة القرآن جميع الشهر"([7]) .

([1]) وقد صرح ابن حجر-رحمه الله تعالى- ببعض ذلك في فتح الباري ٩/٤٥، مرجع سابق، فقال: "ولولا التصريح بأنه كان يعرضه مرة واحدة، وفي السنة الأخيرة مرتين -لجاز أنه كان يعرض جميع ما نزل عليه كل ليلة، ثم يعيده في بقية الليالي".

([2]) البخاري ٣/١١٧٧، مرجع سابق .

([3]) فتح الباري ٩/٤٥، مرجع سابق .

([4]) لم يتكلم الباحث عن العرضة الأخيرة كلاماً مستقلاً؛ لاستحقاقها تأليفاً مستقلاً في حقيقتها، وإثبات بعض أحكام الألفاظ بها، وخطورة بناء حكم عليها، وذلك مُخْرِجٌ البحث عن مرامه، وإنما وردت الإشارة إليها في ثنايا الكلام .

([5]) رواه البخاري ٤/ ١٩٠٩،و٣/١١٧٧، مرجع سابق .

([6]) رواه البخاري٤/٢٣٤٠، مرجع سابق .

([7]) في فتح الباري ٩/٤٥، مرجع سابق .

المطلب الرابع: إيرادٌ على ما سبق ودفعه:

وقد يعترض معترضٌ بأن ما سبق مما يُفهم منه تفخيم الاعتناء باللفظ ينافي ما رواه الإمام مالك عن عبد الله بن مسعودﷺ أنه قال لإنسان: "إنك في زمان كثيرٌ فقهاؤه، قليلٌ قراؤه، تحفظ فيه حدود القرآن، وتضيع حروفه، قليلٌ من يسأل، كثيرٌ من يعطي، يطيلون فيه الصلاة، ويقصرون الخطبة، يبدءون أعمالهم قبل أهوائهم، وسيأتي على الناس زمان قليلٌ فقهاؤه، كثيرٌ قراؤه، تحفظ فيه حروف القرآن، وتضيع حدوده، كثيرٌ من يسأل، قليلٌ من يعطي، يطيلون فيه الخطبة، ويقصرون الصلاة، يبدءون فيه أهواءهم قبل أعمالهم"([1])، وقد أورد أبو إسحاق الشاطبي -رحمه الله تعالى- هذا الأثر في معرض الاستدلال([2]) .

والجواب من وجوه:

١- أن الشأن أولاً في صحة هذا الأثر من حيث السند، ثم من حيث المتن، فأما سنده فمنقطع حيث جاء في الموطأ:

وحدثني عن مالك عن يحيى بن سعيد أن عبد الله بن مسعود، فقد ضَعُفَ من حيث السند .

٢- ومن حيث المتن -على فرض صحة السند واتصاله- فإن نكارة موضع الشاهد منها واضح؛ حيث لم تَرِد في بقية طرق الأثر، فقد ورد في موضعٍ آخر من

([1]) (إمام دار الهجرة) أبو عبد الله مالك بن أنس الأصبحي ت ١٧٩هـ: موطأ الإمام مالك ١/١٧٣، مراجعة: محمد فؤاد عبد الباقي- دار إحياء التراث العربي، مصر، وقد جاء هذا الحديث مرفوعاً فيما رواه الطبراني في المعجم الكبير ٣/ ١٩٧، مرجع سابق، عن حزام بن حكيم بن حزام عن أبيه عن النبي ﷺقال: (إنكم قد أصبحتم في زمان كثير فقهاؤه، قليل خطباؤه، كثير معطوه، قليل سؤاله، العمل فيه خيرٌ من العلم، وسيأتي زمان قليل فقهاؤه، كثير خطباؤه، كثير سؤاله. قليل معطوه، العلم فيه خير من العمل) .

([2]) انظر: الموافقات ٢/١٧٣، مرجع سابق .

الموطأ والمعجم الكبير دون موضع الشاهد، كما أنها فاسدةٌ معنى عند أخذها على ظاهرها؛ إذ كيف تحفظ حدود القرآن، وحروفه مضيعة.

فإن اعتُرض بأن روح القرآن باقية -أي مقاصده الكلية- وإن ذهبت ألفاظه .

فالجواب: في إطلاق هذا القول نظر إن أطلقنا القول بضياع حروفه، وهل نعرف روحه دون تأكدنا من حروفه؟، فإن سُلّم ذلك فمقاصده المزعوم بقاؤها حروفٌ في ذاتها فيعاد الكلام عليها جَذَعَةً .

على أن حروفه تلك:

إما أن تكون **متغيرة**، وإما أن تكون منعدمة وإما أن تكون قائمةً بالنفس، وإما أن تكون **ثابتة:**

فالأول: وهو ما كانت حروفه متغيرة لا يعتبر شرعاً صالحاً للبشر لعدم انضباطه، أو ظهور معالمه فضلاً عن أن يكون شرعاً إلهياً .

والثاني: وهو ما كانت حروفه منعدمةً، أو قائمةً بالنفس فلا يتعلق به حكم؛ لأنه معدوم .

والثالث: متعينٌ بعد ما سبق، وهو المراد .

ولو صح هذا الزعم القائل بأن"الألفاظ مجرد وسائل فلا تقدس في ذاتها، بل الأمر متجه إلى روح القرآن ومقاصده"، لصح أن يقال من بابٍ أولى: فلا داعي لتقديس جميع الوسائل العلمية والعملية في الحياة، فتعطل دراسة اللغة العربية للحجة ذاتها، ومثلها سائر علوم الوسائل، ولا يحتاج لدراسة العلوم الطبية؛ لأن المقصد شفاء المريض! ولا يُدْرَى كيف سيُشفى؟!، ولا داعي لاستخدام أداةٍ لارتقاء السقف؛ لأن الهدف الوصول إلى السقف؟!، ولا تدري كيف سيصل؟!، لتحدث -بعدُ- فوضى ضاربة في الحياة العلمية والعملية .

٣- عند التسليم بصحة موضع الاستشهاد في الحديث، فإن وضعه في موضعه الصحيح هو الحكمة ذاتها...إذ إن مراد ابن مسعودﷺ منه ترك التعمق في السعي وراء الألفاظ، وحتمية إعطائها القدر المناسب لها دون إيغالٍ شاغلٍ بها عن المراد منها، والنهي عن التنطع، والتعمق...والنهي عن الإيغال والغلو ليس خاصاً بالوسائل بل هو عام في كل شيء مقاصداً ووسائلاً...وذا من بدهيات دلالات سبيل القصد، والوسطية في الشريعة، بل في سائر جوانب الحياة المختلفة([1])...**وهذا الفهم لمنطوق كلام ابن مسعودﷺ هو ما نص على مثله السيوطي** -رحمه الله تعالى- في تنوير الحوالك حيث قال: "(قليل قراؤه) أي الخالون من معرفة معانيه، والفقه فيه، (وتضيع حروفه) أي أن المحافظين على حدوده أكثر من المحافظين على التوسع في معرفة أنواع القراءات"([2]) .

ومن الأدلة على أن الإمام أبا إسحاق الشاطبي -رحمه الله تعالى- لا يريد ما ذهب إليه هؤلاء، أنه قال -بعد- معدداً القواعد التي تنبني على الأصل الذي ذكره، وورد الاستدلال بكلام ابن مسعودﷺ ضمنه: "اتباع الهوى في الأحكام الشرعية مظنةٌ لأن يحتال بها على أغراضه، فتصير كالآلة المعدة لاقتناص أغراضه"([3])، وهذا دالٌ على أن كلام ابن مسعود ﷺ ينبغي أن يُفهم في إطاره، فلا يتخذ مطية لهدم الشريعة التي هي أصل أثر ابن مسعود ﷺ، ولذا فإنه كان يُقَعِّدُ لقراءته أقوى تقعيد، ويعتمد على أوثق الأسانيد وهو قوله: (أخذتها من في رسول الله ﷺ)([4]).

([1]) انظر: الموافقات ٢/١٢٠، مرجع سابق .

([2]) تنوير الحوالك شرح موطأ مالك ص١٤٤، مرجع سابق .

([3]) الموافقات٢/١٧٦، مرجع سابق .

([4]) المعجم الكبير للطبراني ٣/ ١٩٧، مرجع سابق .

ومن أحسن أدلة التوقيفية في أداء القرآن قولهﷺ: (ما أنا بقارئ)؛ إذ كررها ثلاثاً وبين أبو شامة -رحمه الله تعالى- بأن قوله أولاً (ما أنا بقارئ) دالٌ على الامتناع، وثانياً على الإخبار بالنفي المحض، وثالثاً على الاستفهام، "ويؤيده أن في رواية أبي الأسود في مغازيه عن عروة أنه قال: (كيف أقرأ)، وفي رواية عبيد بن عمير عن ابن إسحاق: (ماذا اقرأ) وفي مرسل الزهري في دلائل البيهقي: (كيف أقرأ)، وكل ذلك يؤيد أنها استفهامية"([1]) .

المطلب الخامس: المقتضى المنهجي لدلالات حديث المعارضة، ومفردات تلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن الكريم:

إذا كان النبي ﷺ قد كُفي مؤنة الحفظ والمراجعة لتكفل اللهﷻ له بذلك، على ما سبق في حديث المعالجة([2])، فإن خطواته البشرية لتثبيت الحفظ، ودوام المراجعة، إن هي إلا إشاراتٌ واضحةٌ لتحويل مقتضاها إلى قواعد منهجية في الإحاطة بالدرس القرآني حفظاً، وتلاوةً، ومراجعةً، واستدعاءً، وبيان معنى، وعملاً، وصنيع البحث هنا مجرد الإشارة العابرة إلى بعض ذلك بغية الإثارة، والاستفزاز البحثي لمن يعتريه طيف التوهم في المفردات الشرعية الأساسية، أو يقذف الشيطان في قلبه وسواس الشك، لا التحليل والإطناب؛ إذ ليس مجال البحث...وقد تقدم في المطالب الأربعة السابقة بعض المقتضيلت المنهجية لدلالات الحديث، والأمر الجامع لها: أن يكون لحفظة القرآن معارضة سنوية للقرآن الكريم على مشايخهم، أو معارضة ثانية بعد ختم القرآن حفظاً على الأقل، وتزداد عدد مرات المعارضة بحسب حالة الطالب...وتكون للمسلمين عموماً عرضة للقرآن الكريم نظراً أو غيباً عن ظهر قلب على شيخٍ متقن، وأفضل أوقات ذلك في رمضان...مع ظهور التعبد والتبتل عند قراءة القرآن في العرضة...خاصةً الإنفاق .

([1]) انظر: فتح الباري ١/ ٢٤، مرجع سابق .

([2]) انظر: المبحث السادس من هذا الفصل.

وعلى ما سبق: تكون مفـــردات تلقـــي النبـــي ﷺ ألفـــاظ القـــرآن مـــن جبريل عليه السلام:

١- **إلزامية حفظ الألفاظ**، وقد تكفل الله ﷻ بجمعـــه لنبيـــه في صـــدره (الحفظ).

٢- **إتقان الحفظ**، وقد كان إنزال القرآن الكريم على قلب النبي ﷺ من بين ســـائر أنواع الوحي، وهو أشده على النبي ﷺ لهذا الغرض في المقام الأول .

٣- **إلزامية المراجعة العامة للمحفوظ**، وقد تكفل الله ﷻ لنبيه ﷺ بـــأن لا ينسى منه شيئاً على سبيل النسيان الكلي([1]) .

٤- **إنزاله منجماً**،ليكون أثبت في قلب النبي ﷺ حفظاً، وأداءً، وتبليغاً .

٥- **بيان لفظ القرآن الكريم**، وقد تكفل الله ﷻ بأن يقرأه النـــبي ﷺ كمـــا قـــرأه جبريل عليه السلام، حذو القذة بالقذة، وذا شاملٌ لأصل اللفظ ولأدائه .

٦- **العناية بأداء ألفاظ القرآن**، وقد تكفل الله ﷻ بإظهاره علـــى لســـان نبيـــه ﷺ وتبيينه.

٧- **إنزال القرآن الكريم وتلقينه للنبي ﷺ مرتلاً (مجوَّداً مُنَجَّماً)، ووجوب ترتيلـــه على النبي ﷺ على الهيئة ذاتها** التي رتله بها جبريل عليه السلام .

٨- **هيئة مراجعةٍ يوميةٍ** للقرآن الكريم في قيام الليل أو غيره ([2]) .

٩- **هيئة مراجعةٍ سنوية للقرآن الكريم** في كل رمضان يعـــارض فيـــها النـــبي ﷺ وجبريل عليه السلام -كلٌ منهما الآخر- ألفاظ القرآن الكريم متضمنةً النظر في ألفاظه مـــن حيث أصل اللفظ ومن حيث الأداء .

([1]) انظر: دلالات حديث المعالجة في المبحث السادس من هذا الفصل ص١١٣ ، وما سيأتي -إن شاء الله تعـــالى- في الفصل الخامس .

([2]) انظر: المبحث الثامن من هذا الفصل ص١٧١ .